الجزء ٩ — المجلد ١٠



(دمشق) : ايلول سنة ١٩٣٠ م — الموافق ربيع الثاني سنة ١٣٤٩ هـ

درس

في حياة أسامة بن منقذ
و « كتاب الاعتبار »

في العام الذي تلا فيه البابا أوربانوس الثاني في كارمون خطابه الذي يعدّ حقة باعتبار نتائجه الصليبية أفعل خطاب في التاريخ ، وُلد لبني منقذ الامراء في شيزر على العاصي (وذلك يوم الاحد ٢٧ جمادي الآخرة سنة ٤٨٨ = ٤ تموز سنة ١٠٩٥) غلام أُطلق عليه والداه اسماً تحلّى به في صدر الاسلام اول قائد عربي عهد اليه امر فتح الشام[1] ، وكان ذلك الاسم قد ورد في الرُقُم الحميرية السابقة للاسلام[2] . ذلكما أسامة بن منقذ ، مؤلف كتابنا هذا وبطله .

عاش أسامة شهماً فارساً ، واشتهر مجاهداً مقاتلا ، ولمع أديباً وشاعرا ، وتلهى صياداً وجوّابا . نشأ على ضفاف العاصي بجوار حماة ، وقضى معظم ايام شبابه في البلاط النوريّ بدمشق ، وفي قصر الخليفة الفاطمي بالقاهرة ، وغالب سني كهولته في الدار الاتابكية بالموصل ، وفي حصن كيفا على دجلة . زار بيت المقدس في فلسطين وحج الى

(١) أسامة بن زيد . (٢) في متحف اللوفر بباريز حجر أتى به من صنعاء الرحالة بركهاردت زبرت عليه كتابة بالقلم المسند تضمنت اسم « أسامة بن عامر » راجع :
M. lidzbarski - Ephemeris Fur Semitische Epigraphik (Giessen ١٩٠٢) مجلد ١ صفحة ٢٢١ — ٢٢٢ .

الحرمين ، وتنقل بين معظم العواصم الاسلامية مدنية ودينية . عاشر نور الدين زنكي ، وصاحب الخليفة الحافظ . وخلفه الظافر ، وتعرّف بنفسه الى بوهمند وتنكرد وفُلْك من الافرنج الصليبيين ، وخصه قبيل وفاته بدمشق عن ٩٦ عاماً قريباً ، صديقه صلاح الدين بعطفه . آخى الافرنج — ولا سيما الفرسان منهم — في وقت السلم ، وقاتلهم في حال الحرب ، كما قاتل غيرهم من الاسماعيلية وسائر العرب ، فضلاً عن الأسد والوحوش الضواري . وفي آخر ايامه دوّن لنا كل ما خبره بالذات ، وعرفه من مصادره الاصلية ، في مذكرات شائقة رائعة قلّ نظيرها — من حيث الامانة في النقل والصدق في الرواية والدقة في الملاحظة وطيب النكهة في التعبير — في آداب اللغة العربية .

فحياة أسامة إذن تمثل لنا ازدهار الفروسية الاسلامية العربية في ربوع الشام في أواسط القرون الوسطى . التي بلغت زهوها الكامل في عهد صلاح الدين ، وسيرته تتضمن موجز تاريخ البلاد في القرن الثاني عشر — قرن التجريدات الصليبية الثلاث الاولى — ومذكراته الموسومة « بكتاب الاعتبار » مرآة تجلى فيها المدنية الشامية في أجلى مظاهرها — لا لذاتها فقط بل بالمقابلة مع المدنية الافرنجية التي قامت الى جانبها. وأسامة لو عاش اليوم لكان بلا ريب عضواً في المجمع العلمي العربي ، ولكان بيته مجلس الأدب بدمشق ، ولراسل «الهلال» و «المقطم» ، ولأكثر من العيش في الهواء الطلق يدرس طبائع الحيوان و يراقب نموّ النبات ، ولنالت جياده العربية جوائز السبق في بيروت ، ولكان بلا تردد في اثناء الحرب العظمى جيّش جيشاً من المتطوعة تولى قيادته بنفسه .

* * *

على بعد (١٥) ميلاً الى الشمال من حماة أكمة صخرية منتصبة على ضفة العاصي الغربية يكلّلها حصن لم يزل قائماً الى اليوم معروفاً باسم «سيجر» تحريف شيزر . شيزر هو المرسح الذي تمثلت عليه معظم الحوادث المدوّنة في الكتاب والتي جرت وقائعها في ايام أسامة الفتى . الهضبة لنتوئها سماها مؤلفو العرب « عرف الديك » . نهر العاصي يلتف حول الأكمة من جهاتها الثلاث ، فهي إذن شبه جزيرة بوضعها الجغرافي . غير ان الانسان كمّل عمل الطبيعة بحفره خندقاً في الصخر الواصل بين شبه الجزيرة والبر ،

مما زاد في مناعة الحصن وفي تعذر الوصول اليه · وشيزر قسمان : قسم في القلعة على الرابية وهو البلد ، وقسم قرب الجسر على العاصي وهو المدينة · وللقلعة أبواب ثلاثة أهمها يفتح الى الجسر · وعلى الجسر حصن أطلق عليه اسم « حصن الجسر » ·

اذا غزا غازٍ البلاد السورية من الشمال فأمامه طريقان : طريق بحرية تمر في اللاذقية فالساحل الفينيقي — وهي الطريق التي اختارها الاسكندر وكثير من الغزاة الأشوريين ، وطريق داخلية تماشي العاصي الى حماة فحمص ثم تنعطف غربا مع وادي النهر الكبير الى شمالي طرابلس ، أو انها تستمر من حمص في سهل البقاع وتتصل بالساحل الغربي جنوباً عند سفوح سلسلة لبنان · والطريق الثانية هي التي سلكها معظم الفاتحين المصريين والبابليين مثل رعمسيس ونبوخذنصر ، وآثرها اكثر الصليبيين · ولا بد لمن طرق هذه الطريق الثانية من اجتياز أفامية (قلعة المضيق) واختها الجنوبية شيزر المتسلطة على وادي العاصي · هذا مايجعل لموقع شيزر خطورة حربية ·

لشيزر اسم في رأس قائمة المدن السورية المتوغلة في القدم · ذكرها طثميس للمرة الاولى بالهيروغليفية نحو سنة ١٥٠٠ (ق · م) وهو يصف احدى حملاته من مصر باسم « سِتزار » او « سِيزار » وذكرها بعده خلفه البعيد امخوتب الثاني[١] · ووردت بصيغة « زِنْزَر » في رُقم تل العمارنة المسمارية · وسماها اليونان الأقدمون « سِدْزارا » ، والبيزنطيون « سِيزِر » · وفي أواخر القرن الرابع قبل المسيح أسكنها سلوقس الاول مهاجرين من لارِسّا في تساليا وغيّر اسمها الى « لارِسّا » · على ان الاسم السامي الاصلي ما لبث ان عاد فتغلّب وظهر بالعربية في صيغة « شيزر » · وعلى هذه الصورة ورد الاسم في بيت قديم لامرئ القيس :

تقطّع أسبابُ اللُّبانة والهوى عشية رحنا من حماة وشيزرا

وفي آخر لعبيد الله بن قيس الرُّقَيات :

فواحزناً اذ فارقونا وجاوروا سوى قومهم أعلى حماة وشيزرا[٢]

(١) راجع J. H. Breasted Ancient records of egypt (chicago ١٩٠٦) مجلد ٢ فقرة ٥٨٤ و٣١٤ · (٢) ياقوت « معجم البلدان » (ليبزغ ١٨٦٨) ٣ : ٣٥٣

اما مؤرخو الافرنج الصليبيون فأطلقوا عليهـا اسم « قيصرية » (Coesarea) او « قيصرية العاصي » للتمييز .

فتح العرب شيزر عام ١٧ (٦٣٨) فيما فتحوا من المدن الشامية ، وذلك عقب الاستيلاء على حمص وحماة بقيادة ابي عبيدة بن الجراح ، فتلقاه اهل شيزر « يكفّرون ومعهم المقلّسون ، ورضوا بمثل ما رضي به اهل حماة[1] » . و بالنظر لموقع البلدة الجغرافي ، و باعتبار كونها مفتاح سورية الداخلية ، بقيت مطمح ابصار البيزنطيين الذين استخلصوها مراراً من ايدي العرب وخسروها ، الى ان أخضعها الامبراطور باسيل الثاني سنة ٩٩٩ وبقيت بيد الروم حتى عام ١٠٨١ وهو العام الذي استرجعهـا فيه عز الدولة سديد الملك ابو الحسن علي جد أسامة من ايدي الامبراطور ألكسيس كومنينس .

***

وكان صالح بن مرداس صـاحب حلب قد منح الامراء المنقذين من بني كنانة عام ١٠٢٥ إقطاعاً في جوار شيزر . فتمكّن احد هؤلاء الامراء (مقلّد) من الاستيلاء على كفر طاب سنة ١٠٤١ . وجاء بعده خلفه ابو المتوّج مقلّد بن نصر الذي بسط سلطته الى العاصي وبنى حصن الجسر عند قدمي شيزر ليقطع عنها المدد . ولكن البلدة بقيت بيد البيزنطيين الى ايام سديد الملك . فسديد الملك اذن هو مؤسس الدولة المنقذية بشيزر . ولدن وفاته عام ١٠٨١ عقبه ابنه عز الدولة ابو المرهف نصر[2] ، وهو مع اشتهاره بالورع وحب السلام تولى الى حين أفامية و كفرطاب واللاذقية عدا شيزر .

توفي ابو المرهف بلاعقب عام ١٠٩٨ ، فانتقلت الإمارة من بعده الى اخيه الأصغر مجد الدين ابي سلامة مرشد (١٠٦٨—١١٣٧) ، والد مؤلف كتابنا أسامة . ولكن مجد الدين شغف بالصيد ونسخ القرآن اكثر من السياسة ، فتنازل عن السيادة لاخيه الأصغر عز الدين ابي العساكر سلطان مردداً (والله لا وليتها . ولأخرجن من الدنيا كما

(١) البلاذري «فتوح البلدان» (ليدن ١٨٦٦) ١٣١ . (٢) فصّل ذلك ابن الاثير « كامل التواريخ » في Recueil des Historiens des Croisades Historiens Orientaux (paris ١٨٧٢) ٥٠٤ : ١

دخلتها (١) .

وكانت شيزر على عهد سلطان عم أسامة عرضة لغزوات متتابعة يغزوها بنو كلاب في حلب ، وكذلك الاسماعيلية والروم البيزنطيون والافرنج الصليبيون رشقها الامبراطور جان كومنينس عام١١٣٨ بالمنجنيق عشرة ايام متوالية . وحاول الافرنج الاستيلاء عليها مراراً ، ولكن على غير جدوى . فأنقذتها من السقوط مناعتها الطبيعية وحصونها القوية ، وزعامتها المنقذية .

وفي خلال إمارة (سلطان) جرت معظم الحوادث التي دوّنها أسامة في مذكراته ، وهو شاهد عيان لها ، فخلد وقائعها وجعلها ارثاً لنا . ومع ان أسامة كان احد اخوة اربعة هو ثانيهم ، فان عمه سلطاناً — ولم يكن له اولاد ولد ذكر — خص أسامة بعطفه ورعايته ، ودرّبه على الفنون الحربية ، وكان يمتحن بالسؤال حضور ذهنه في ساعة القتال (٢) ونشأه نشأة من يريد ان يجعل منه خلفاً له . وكثيراً ما وكل اليه قضاء مصالح اهل بيته مثل مرافقته لزوجة عمه واولادها من شيزر في ايام الحر الى مصياد (٣) . اما بعد ان رزق العم ولداً يخلفه فوجهة نظره نحو ابن اخيه تغيرت ، والحسد أخذ يعمل فيه ، مما جعل أسامة الشاب يغادر شيزر موقتاً عام١١٢٩ ، ثم اطردت هجرته بعد وفاة والده أخي سلطان في ٣٠ ايار سنة ١١٣٧ . وكانت جدة (٤) أسامة لابيه حذّرته مرة من عمه وقد رأت حفيدها داخلاً البلدة مساء وبيده رأس أسد ضخم كان قد اصطاده ، فأسدته النصح مشيرة الى الأثر الذي يحدثه عمله هذا في نفس عمه قائلة له « مايقرّبك هذا منه وانه

---

(١) ابو شامة « كتاب الروضتين في اخبار الدولتين » (مصر١٢٨٨) ١ : ١١١—١١٢ وابن الاثير في (Recueil) ١ : ٥٠٤ . (٢) « كتاب الاعتبار » (ليدن١٨٨٤) ٧٦ ولا بد من التنبيه الى ان الاشارات فيما بعد كلها الى هذه الطبعة — طبعة درنبورغ — ريثما تتم الطبعة الجديدة المبنية على المخطوطة الاصلية والتي تتولى الآن طبعها في مطبعة جامعة برنستون العربية . (٣) كتاب الاعتبار ١٠٩ .

(٤) ابن الاثير « تاريخ الدولة الأتابكية » في (paris ١٨٨٧) « Recueil » مجلد ٢ جزء ٢ ص ٢٠٠ يجعلها والدته .

يزيدك منه بعداً و يزيده منك وحشة ونفوراً [١] » . ومع هذا فان (كتاب الاعتبار) يحفظ لنا نكتة تمثل شهامة سلطان . وخلاصتها ان امرأة كان قد تزوجها سلطان وطلقها فوقعت أسيرة في يد الافرنج ، ففكّ للحال أسرها وسلّمها الى اهلها قائلا « ماأدعُ امرأةً تزوجتُها وانكشفتْ عليّ في أسر الافرنج [٢] » .

توفي سلطان حوالى عام ١١٥٤ فخلفه ابنه تاج الدولة ناصرالدين محمد ، وهو آخر الامراء من بني منقذ وفي ايامه جرت في شيزر مأساة مفجعة قضت على بني منقذ بأسرهم . وذلك خلال ختان ولد لتاج الدولة فقد أولم الوالد وليمة حضرها جميع آله ، وفي اثنائها حدث الزلزال الشهير عام ٥٥٢ (١١٥٧) الذي « ملك فيه مالايحصى » والذي خرّب حماة وشيزر و كفرطاب والمعرة وأفامية وحمص وحصن الاكراد الخ [٣] » « ولم ينج من بني منقذ احد [٤] سوى زوجة تاج الدولة التي انتشلت من تحت الردم ، الا ان نور الدين صاحب دمشق عاد فعمر شيزر .

(التأثير الاكبر في نفسية أسامة كان لعمه سلطان وبعده لوالده) — تمثل صورة الوالد التي ابقاها لنا أسامة في مذكراته رجل تقوى وسلام لا تهمه شؤون هذا العالم الفاني ، يفرغ « زمانه لتلاوة القرآن والصيام والصيد في نهاره ، وفي الليل ينسخ كتاب الله [٥] » . مع ذلك لايجب ان يُفهم من ذلك انه كان متقاعداً جباناً . ففي غير مكان يذكر أسامة ان والده لم يكن « له شغل سوى الحرب وجهاد الافرنج ونسخ كتاب الله [٦] » ثم يقتبس عنه عبارة قالها لما حذّره ولده في معركة : « ياولدي في طالعي انني لاارتاع [٧] » .

ولنستشهد الآن ببعض الوقائع الدالة على نوع التربية التي ترباها أسامة في ظل والده وعمه ، ومرجعها كلها في قول أسامة « ما رأيت الوالد رحمه الله ، نهاني عن قتال ولا ركوب خطر ، مع ما كان يرى فيّ وأرى من اشفاقه وايثاره لي [٨] » . أسامة وهو دون العاشرة [٩] ، يطعن خادمه طعنة تجيء قاضية دون ان يستوجب سخط والده

(١) كتاب الاعتبار ٩٣ . (٢) ص ٥٣ . (٣) ابن الاثير في « Recueil » ١ : ٥٠٣ . (٤) ايضاً ٥٠١ ـ ٥٠٦ . (٥) كتاب الاعتبار ١٤٤ .
(٦) ايضاً ١٩٩ . (٧) ايضاً ٤١ . (٨) ايضاً ٧٦ . (٩) ايضاً ١٠٧ .

يباشر القتال وهو حدث يافع فيذكر كيف أنه في اول قتال حضره حمل على افرنجي طعنه فخرج من السرج لخفة جسمه وقوة الطعنة[١] . يرى حية وهو صبي على حائط الدار فيتسلق اليها و يأخذ يحز رأسها بسكينه الصغير وهي تلتف على يده ووالده يراه ولا ينهاه[٢] . تعود رهائن من افرنج وأرمن كانت في شيزر الى بلدها فتقع في ايدي صاحب حمص وهو مسلم ، فتصدر اوامر والد أسامة له في هذه الصيغة « اتبعهم بمن معك وارموا انفسكم عليهم واستخلصوا رهائنكم[٣] » الكلمات الأخيرة (ارموا بانفسكم) تقع من نفس أسامة موقعاً شديداً .

وللدلالة على الرابط البنوي الذي كان يربط الابن بالوالد يكفي الاستشهاد بعبارة أوردها أسامة بعد ان أطنب بحسن خط والده : « وما يقتضي الكتاب ذكر هذا وانما ذكرته لأستدعي الرحمة (على الوالد) ممن وقف عليه[٢] » .

أما والدة أسامة فلنا ان نحقق المعدن التي جبلت منه من مراجعة حادثة ذكرها أسامة[٤] . ومفادها ان الاسماعيلية مرة هاجمت شيزر والرجال متخلفون ، فوزعت أم أسامة السلاح والبست ابنتها الخف والازار واجلستها على روشن يشرف على الوادي حتى اذا ما انتهى الاعداء اليها تدفعها وترميها الى الوادي فتراها ميتة ولا اسيرة في ايدي « الفلاحين والحلاجين[٤] » . حقاً ان والدته كجدته كانت من « أمهات الرجال[٥] » .

تلك هي البيئة التي نشأ فيها أسامة وترعرع . فتصلب عوده وهو سرن ، وألف اقتحام المخاطر والمغامرات ، ونشأ على مباديء الفروسية والشهامة . وذلك في عصر تلاحقت فيه الحروب ، وتتابعت الغزوات من الافرنج والعرب ــ من مسيحيين ومسلمين ، وفي بلاد كثرت فيها الوحوش الضارية والحيوانات المفترسة . حتى ان أسامة ما كان يخرج للصيد في جوار شيزر الا وهو مسلح مستعد للعدو المفاجيء[٦] . ولم يشهد أسامة القتال في شيزر وحماة في شمالي سورية فقط ، بل في عسقلان وبيت جبريل

(١) كتاب الاعتبار ٣٠ . (٢) ايضاً ٧٦ . (٣) ايضاً ٣٩ .
(٤) ايضاً ٩٢ . (٥) ايضاً ٩٣ . (٦) ايضاً ١٤٦ .

من اعمال فلسطين ، وفي شبه جزيرة سيناء ومصر ، وفي دياربكر والموصل . فلا غرو اذا أصبح اسم أسامة في التواريخ الاسلامية مرادفاً للبطولة .

ولقد دعاه الذهبي « احد أبطال الاسلام[1] » ووصفه ابن الاثير بانه « كان من الشجاعة في الغاية التي لامزيد عليها[2] » . وأسامة نفسه أجمل اختباراته الحربية بقوله في آخر ايامه « فكم لقيت من الأهوال ، وتقحمت المخاوف والاخطار ، ولاقيت الفرسان ، وقتلتُ الاسود ، وضُربتُ بالسيوف ، وطُعنتُ بالرماح ، وجُرحتُ بالسهام والجروخ[3] » ! هتاف ليس المقصود منه التأثير الخطابي فقط بل تبيان الحقائق .

ومن خلال كل هذه التجارب تتبين لنا شخصية أسامة . فاذا بها شخصية مستسلمة تستقبل الأفراح ، وتودّع الأحزان ، تواجه الظفر وتجابه الفشل ، بروح الصبر والتسليم . النصر — باعتبار أسامة — من الله[4] . وكذلك الهزيمة . الموت لا « يقدّمه ركوب الخطر ، ولا تؤخره شدة الحذر[5] » . « الله مقدّر الأقدار ، وموقّت الآجال والأعمار[5] » . في الجملة الاخيرة متضمّن فلسفة الحياة بامرها كما فهمها أسامة .

وفي مجمل معاملاته مع اصدقائه وخصومه يدهشنا ميله للنصفة والعدلة . ها كه مع رفيق في مكان مشرف على ثمانية فرسان من الافرنج . الرفيق يشير باخذهم على غرّة ، ولكن جواب أسامة : « ما هذا انصاف ، بل نحمل عليهم انا وانت[6] » والمبهج انه لا يتم سرد هذه الحادثة ، التي هزم فيها مع رفيقه ثمانية ، حتى يشرع بسرد غيرها يهزمها فيها « رويجل »[6] . يروي قصة ممتعة تظهر الطب الافرنجي سقيماً بالمقابلة مع الطب العربي[7] — وهي من أبدع قصص الكتاب — ثم يردفها باخرى تظهر الوجهة الفضلى من طب المغرب[8] . يطنب بوالده صياداً . ولكن سلامة ذوقه توحي اليه على الأثر « ما أدري : كنتُ أراه بعين المحبة . كما قال القائل : وكل ما يفعل المحبوب

(١) « دول الاسلام » (حيدرآباد ١٣٣٧) ٢ : ٧١ . (٢) « الدولة الاتابكية » في (Recueil) مجلد٢ جزء ٢ ص٢٠٧ . (٣) « كتاب الاعتبار » ١٢١ — ١٢٢
(٤) ايضاً ١٠٩ . (٥) ايضاً ١٢١ . (٦) ايضاً ٤٣ . (٧) ايضاً ٩٧ — ٩٨ .
(٨) ايضاً ٩٨ .

محبوب . ما أدري : أ كان نظري فيه على التحقيق . وأنا ذاكر شيئاً من ذلك ليحكم فيه مَنْ يقف عليه[١] .

قضى أسامة سنين غير قليلة في البلاط الفاطمي بمصر (١١٤٤ – ١١٥٤) وربما لم يكن لذلك العهد من دار عششت فيها جراثيم المكائد والمفاسد كما في تلك الدار : يد الوالد على الابن ، والابن على الوالد ، ويد الخليفة على الجميع . ابن الاثير[٢] يدعي ان أسامة هو الذي أشار على عباس بن ابي الفتوح بقتل العادل وزير الظافر[٣] . ولكن مذكرات أسامة لاتدل على انه لوّث يديه في حال من الأحوال . صلاح الدين الغسياني ، ذلك الجلف التركي ، يوسّط من يشاء من رجاله (اي يأمر بقطعهم من الوسط شطرين) لسبب او لغير سبب ، فلا يتردد أسامة في الشفاعة بهم[٤] . عمّ أسامة يجلوه عن مسقط رأسه ، ثم يودي الزلزال بحياة ابن عمه وسائر آله في شيزر ، فيرثيهم أسامة الشاعر بقصيدة كلها شعور طيب :

لم يترك الدهر لي من بعد فقدهم قلباً أجشمه صبراً وسلوانا

فلو رأوني لقالوا مات أسعدُنا وعاش للهم والأحزان أشقانا

لم يترك الموت منهم من يخبّرني عنهم فيوضح ما قالوه تبيانا

بادوا جميعاً وما شادوا فواعجباً للخطب أهلك عمّاراً وعمرانا

هذي قصورهم أمست قبورهم كذاك كانوا بها من قبل سكانا

الى ان يقول :

بنو أبي وبنو عمي دمي دمهم وان أروني مناواةً وشنآنا[٥]

وان احترام أسامة للنساء لامر يسترعي انتباهنا . فانا نراه يضع تأليفاً موسوماً « باخبار النساء » ويخصص في (كتاب الاعتبار[٦]) صفحات للاشادة باعمال البطولة التي قام بها بعضهن وبينهن والدته . وفي قصته مع خادمته العجوز التي أفرد لها بيتاً في

(١) « كتاب الاعتبار » ص ١٤٤ . (٢) « كامل التواريخ » أبسالا ١٨٥١ ١١ : ١٢١ . (٣) قابل « كتاب الاعتبار » ٦ . (٤) ايضاً ١١٦ – ١١٧ .
(٥) ابو شامة ١ : ١٠٦ . (٦) ٨٧ – ٩٧ .

داره وكان يناديها « يا أمي [١] » نافذة نطلّ منها على الشيء اللطيف ضمن أعماق نفسه. وما ألطف ملاحظته بعد ان افتدى اسيرة مسلمة مع غيرها من يد الافرنج فهربوا قبل ان يدفع الفداء فألزمه الافرنجي القيمة كلها « وهان ذلك عليّ لسروري بخلاص اولئك المساكين [٢] » .

حين لم يكن أسامة منهمكاً بقتال الاعداء من البشر كان يشتغل بقتال الحيوانات المفترسة التي كانت سورية الشمالية يومئذ ملأى بها ، او يصطاد الغزلان والطيور والأرانب وحمُر الوحش بالبازي والباشق في شيزر ودمشق وفي الموصل والقاهرة . ونرى زبدة اختباراته ضمنها فصلاً في الصيد ختم به كتابه ، فصل ربما لم يكن في اللغة العربية أنفس منه في موضوعه . أسامة يقول عن نفسه انه شهد الصيد سبعين سنة [٣] وانه حضر قتال الاسد في مواقف لاتحصى ، وقتل عدة منها لم يشاركه في قتلها احد [٤] وان الخليفة الحافظ عناه في سؤاله الانكاري « وايّ شيء شغل هذا الا القتال والصيد؟ [٥] » لذّته في درس الحيوان جعلته يكتشف ان « الأسد كالناس فيها الشجاع وفيها الجبان [٦] » وان « الاسد اذا خرج من موضع لابدّ له من الرجوع اليه [٧] » وان « الاسد مثل سواه من البهائم يخاف ابن آدم ويهرب منه ، وفيه غفلة وبله ، ما لم يُجرَح ، فاذا جُرح فحينئذ هو الاسد [٨] » .

وان النمر « دون سائر الحيوان يقفز الى فوق اربعين ذراعاً [٩] » . على ان صاحبنا شارك جيله في بعض خرافاتهم : « ومن خواص النمر انه اذا جرح الانسان و بالت عليه فارة مات ، ولا ترتد الفارة عن جريح النمر [٩] » . ولما عرض افرنجي في حيفا (فهداً) للبيع أدرك أسامة لاول نظرة من طول الوجه وزرقة العينين انه نمر لا فهد ولا يصلح للشراء [٩] » . ومن دقيق ملاحظاته ان الحُبارى اذا اقترب منها الصقر (استقبلته

(١) كتاب الاعتبار ص١٣٨ . (٢) ايضاً ٦٢ . (٣) ايضاً ١٦٧ . (٤) ايضاً ٨١ و١٠٦ . (٥) ايضاً ١٤٢ . (٦) ايضاً ٧٨ . (٧) ايضاً ٧٨ لم أجد في الكتب العلمية ما يثبت صحة هذه الملاحظة . (٨) ايضاً ٨١ . (٩) ايضاً ٨٢ .

بذنبها . فاذا دنا منها سلحت عليه بأت ريشه وملأت عينيه وطارت [١] » .

نظر أسامة للصيد كسبب للهو — ظاهر من البيت الذي استهل به فصله :

ولله مني جانب لا أضيعه ... وللهو مني والبطالة جانب [٢]

ونزعته الارستقراطية تلوح من عدم تلبيته طلب نورالدين عندما سأله ان يصلح الباز فرفض وأجاب — لما أظهر نورالدين عجبه كيف ان أسامة يقضي عمره بالصيد ولايحسن إصلاح الباز — « يامولاي ما كنا نصلحها نحن ، كان لنا باز يارية وغلمان يصلحونها [٣] » .

درس أسامة النحو عشر سنين على (ابوالطُّلَيطُلي ، سيبويه زمانه) الذي كان قد تولى دار العلم بطرابلس [٤] . ولا شك ان سياق دروسه تناول فضلاً عن النحو الخط والشعر والقرآن — وهي فروع الثقافة في ذلك العصر . فتهذّب أسامة على الطريقة التي كان يتهذّب بها أشراف العرب في زمانه . ونشأ راوية كاتباً ، واديباً شاعراً .

بهذه الصفة الاخيرة عرفه معظم الذين ترجموه . فالذهبي [٥] يذكر عن لسان أسامة انه قال كان يحفظ اكثر من عشرين الف بيت من الشعر الجاهلي ، والراجح انه لم يتصل بجيل أسامة هذا المقدار من الابيات . ويقول عمادالدين الكاتب الاصفهاني الذي اجتمع باسامة في دمشق في « خريدة القصر وجريدة العصر [٦] » : « أسامة كاسمه ، في قوة نثره ونظمه .... حلو المجالسة ، حالي المساجلة ، نديّ الندى بماء الفكاهة ، عالي النجم في سماء النباهة » . ابن عساكر تلميذ أسامة ، ذكر في (التاريخ الكبير [٧]) ان لأسامة « يداً بيضاء في الأدب والكتابة والشعر » واقتبس عن لسانه احدهم قوله ان أسامة « شاعر اهل الدهر ، مالك عنان النظم والنثر » وان مقطعاته « أحلى من الشهد

(١) كتاب الاعتبار ١٠٣ قابل C. H. Stockley, Big Game Shooting in the indian Empire (London ١٩٢٨)

(٢) كتاب الاعتبار ١٣٩ . (٣) ايضاً ١٤٤ . (٤) ايضاً ١٥٣ .

(٥) ملحق Derenbourg, « Vie d' ousàma » (Paris ١٨٨٩) ص ٥٩٥

(٦) (باريز ١٨٨٧) ١٢٢ .

(٧) (دمشق ١٣٣٠) ٢ : ٤٠٠—٤٠١ .

والذ من النوم بعد طول السهد » . واقتبس ياقوت في (معجم البلدان [١]) من أشعار أسامة . وأفاد ابوشامة [٢] ان صلاح الدين الايوبي كان « عنده ديوان الامير مؤيد الدولة أسامة ... وهو به مشغوف ، وخاطره على تأمله موقوف ، والى استحسانه مصروف » . وصالح بن يحيى (٣) يفاخر باقتناء ديوان شعر «عزالدين ! » أسامة بن منقذ بخطه . وعليه فيكون أسامة قد عُرف لمعظم الذين ترجموا له بشاعريته . .

وهاك ابياتاً تدل على قوة الابداع في أسامة الشاعر قالها في ضرس له قلعه :

وصـاحب لا أملّ الدهر صحبته يشقى لنفعي و يسعى سعيَ مجتهدِ
لم ألقـه مذ تصاحبنـا فحين بدا لناظريّ افترقنا فرقة الابدِ [٤]

وغيرها كتبها على حائط مسجد في حلب ، وكان قد زار المسجد قبلاً في طريقه الى الحج :

لك الحمد يا مولاي كم لك منةٌ عليّ وفضلٌ لا يحيط بهـا شكري
نزلتُ بهذا المسجدِ العـامَ قافلاً من الغزوِ موفورَ النصيبِ من الاجر
ومنه رحلتُ العيسَ في عامي الذي مضى نحو بيت الله والركن والحجر
فأديت مفروضاً وأسقطت ثقل ما تحملت من وزر المسيئة عن ظهري [٥]

وأخرى تعرب عن حنينه لوطنه الشامي وتوق نفسه للرجوع الى اهله ، وقد كتبها على حائط دار سكنها بالموصل :

دارٌ سكنتُ بها كرهاً وماسكنتْ روحي الى شجنٍ فيهـا ولا سكنِ
والقبرُ أسترُ لي منها وأجملُ بي إن صدّني الدهر عن عودي الى وطني [٦]

واليك ما كتب في صدر كتاب الى بعض اهله :

---

(١) (دمشق ١٣٣٠) ٢ : ٤١٧ . (٢) ١ : ٢٤٧ . (٣) « تاريخ بيروت » (بيروت ١٩٠٢) ص ٣٥ — ٣٦ . (٤) الذهبي ملحق (Vie d, ousàma) ٥٩٦ . قابل ابن عساكر ٢ : ٤٠٢ ، ابن خلكان ١ : ١١٣ ، ابوشامة ١ : ٢٦٤ ، عماد الدين الكاتب ١٢٣ . (٥) ابن الاثير « الدولة الاتابكية » في (Recueil) مجلد ٢ جزء ٢ ص ٢٠٨ . (٦) ابن عساكر ٢ : ٤٠١ .

شكا ألمَ الفراقِ الناسُ قبلي ورُوّع بالنوى حيٌّ وميتُ
وأما مثل ما ضمّتْ ضلوعي فاني ما سمعت ولا رأيت (١)

ويتضح شغف أسامة بالكتب من ملاحظة أبداها عندما عادت أسرته من مصر فوقعت في ايدي الافرنج وخسر الكثير من المال فلم يأسف عليه أسفه على ما فقد من الكتب وعددها اربعة آلاف مجلد من الكتب الفاخرة « فان ذهابها (على ما قال) حزازة في قلبي ما عشت (٢) .

« للبحث صلة »

جامعة برنستون : فيليب حتي
عضو المجمع العلمي العربي



(١) ابن خلكان ١ : ١١١ .
(٢) « كتاب الاعتبار » ٢٦ .

المحاضرة الثامنة عشرة

اخلاق المتنبي (١)

— ١٠ —

ليس من المستسهل ان أخوض في شيء من الكلام على اخلاق المتنبي وعلى طبائعه ، وعلى الخصوص فان اباالطيب لم يكتب ترجمته بقلمه وان اهل عصره لم يمض لهم قول وافٍ في هذا الباب ، فلانعرف هيأته ولا نعرف تركيب خلقته ، ولو كنا نحيط بطائفة من هذا الامر لاستطعنا ان نستدل بذلك بعض الاستدلال على معرفة اخلاق المتنبي وطبائعه ، فما وصل الينا من أقوال اهل زمانه في هذا الموضوع لا ينقع غليلاً . —

ان اباعبدالله معاذ بن اسماعيل اللاذقي لما قدم عليه المتنبي في سنة عشرين وثلاثمائة اي لما كان عمره سبع عشرة سنة وصفه فقال : قدم اللاذقية وهو لاعذارله ، وله وفرة الى شحمتي أذنيه فأكرمته وعظمته لما رأيت من فصاحته وحسن سمته ، واضاف الى هذا كله انه لم يسمع منه كلمة هزل قط .

والذي أعلمنا به ابو الفرج وقد كان ابو الطيب يأنس به و يأمنه على غيبته ان سيف الدولة كان يغتاظ من تعاظم المتنبي .

وقد عاتب ابو عبدالله بن خالويه سيف الدولة لما غمز غلمانه على المتنبي فقال له سيف الدولة : يتعاظم تلك العظمة و ينزل تلك المنزلة لولا حماقته .

وحكي عن ابي حمزة البصروي انه بلا من ابي الطيب خلالاً محمودة منها عفة المذهب ، والصدق وبلا منه ثلاث خلال ذميمة وذلك انه ما صام ولاصلى ولا قرأ القرآن .

ووصفه ابن فورجة فقال فيه : كان داهية مر اللسان شجاعاً ، حافظاً للآداب ، عارفاً باخلاق الملوك ، ولم يكن فيه ما يشينه و يسقطه الا بخله وشرهه على المال .

والذي دلنا عليه الوحيدي ان المتنبي كان سيء الرأي ، وسوء رأيه أخرجه من

---

(١) سلسلة المحاضرات التي القاها في كلية الآداب في دمشق الاستاذ شفيق بك جبري عضو المجمع العلمي العربي ومدير الكلية المذكورة .

حضرة سيف الدولة ، وعرّضه لمداوة الناس ٠

وقد ذكر ابوعلي الحاتمي ان ابا الطيب المتنبيّ عند وروده مدينة السلام قد التحف برداء الكبر والعظمة فلا يرى احداً الا و يرى لنفسه مزية عليه حتى ثقلت وطأته على اهل الأدب بمدينة السلام وبلغ من شذوذه انه لبس مرة سبعة اقبية ملوّنة وكان الوقت أحرّ مايكون من الصيف وأحق بتخفيف اللبس وشهد له ابوعلي هذا بالفضيلة وصفاء الذهن ، وجودة القدح ٠

وكان ابو علي الفارسي قبل معرفتـه بالمتنبيّ يستثقله عن قبح زيه وعلى ما كان يأخذ به نفسه من الكبرياء ٠

هذا ماانتهى الينا من وصف بعض ظواهر المتنبيّ وبواطنه بوجه التقريب ، ولم يكن في مختلف هذا الوصف شيٌ من الخروج من المقدار ، فمن المحقق ان الرجل كان قليل الميل الى الهزل ، فان روحاً مثل روحه نزّاعة الى العظمة والعلو لا شأن لها في الهزل ، فقد كانت حياته جداً كل الجد ليس فيها متسع للهزل ، وان رجلاً يضرب في مناكب الارض وبواديها وحواضرها ابتغاء لأمر جلّ ان يسمى :

يقولون لي ما أنت في كل بلدة   وماتبتغي ، ماابتغي جل ان يسمى

ان رجلاً هذا هو مطمعه في الحياة لا يجد لغير الجد معني ، ولئن عبث في قليل من شعره ، مثل عبثه في قوله وقد مرّ برجلين قد قتلا جرذاً وأبرزاه يعجّبان الناس من كبره :

وايكما كان من خلفه   فان به عضّة من الذنب

او مثل عبثه في قوله :

اذا شاء ان يلهو بلحية أحمق   أراه غباري ثم قال له : الحق

نعم فما كان العبث من مذهبه ٠

ومن المحقق ان اباالطيب كان صادقاً عفيف المذهب :

ومن هوى الصدق في قولي وعادته   رغبتُ عن شعَر في الرأس مكذوب

فلسنا نجد في اضعاف شعره نزعة الى اللهو والطرب ، فقد كان ينظر الى الحياة من ناحيتها السوداء وقلما نظر اليها من الناحية البيضاء اللامعة ، فما تغنى في شعره بشيء من نضارة الحياة ولذتها ، وانما أعرب في شعره عن الألم وقلما يجتمع اللهو وألم النفس ، وللهو

نفوس لا سبيل للألم اليها ، اما الأبيات التي تدل على ألم روحه فهي كثيرة . فمنها :

فؤاد ما تسليه المدام وعمر مثل ماتهب اللئام

ومنها :

رماني الدهر بالارزاء حتى فؤادي في غشاء من نبال

فصرت اذا اصابتني سهام تكسرت النصال على النصال

ولقد اكثر من الاشارة الى تضافر المصائب فمن قوله في مصر وقد أصابته حمى :

أبنت الدهرِ عندي كل بنت فكيف وصلتِ انتِ من الزحام

وفي هذه القصيدة يقول :

وان أسلم فما أبقى ولكن سلمت من الحمام الى الحمام

فحياته في نظره موت له ، فما أقلّ سروره :

وقت يضيع وعمر ليت مدته في غير أمته من سالف الامم

أتى الزمان بنوه في شبيبته فسرّهم واتيناه على الهرم

على انه قد جاء في شعره ما يدل على ذوقه شيئاً من اللذات ، فمنه قوله :

درّ درُّ الصباء ايام تجرير ذيولي بدار أثلة عودي

ومنه قوله :

إنعمْ ولَذَّ فللأُمور أواخر ابداً اذا كانت لهنّ اوائل

مادمت من أرب الحسان فانما روق الشباب عليك ظل زائل

للهو آونة تمرُّ كأنها قُبَل يزوّدها حبيب راحل

ولكن مذهبه في اللذّات العفة التامة :

اني على شغفي بما في خُمْرها لأعفُّ عما في سراويلاتها

وترى المروّة والفتوّة والابوّة فيّ كل مليحةٍ ضرّاتها

هنّ الثلاث المانعاتي لذّتي في خلوتي لا الخوف من تبعاتها

نعم هذا هو مذهبه : المروّة والفتوّة والابوّة ، وان بيتاً مثل هذا البيت :

اذا كان الشبابُ السكر والشيبُ همّاً فالحياة هي الحمام

لا يصدر عن قلب فتى صاحبه شرخ الشباب في شيء من اللهو وفي شيء من توابع اللهو ، فما اصدقه في هذا الكلام :

وما كنت ممن يدخل العشق قلبه .

* * *

اما شجاعته فلا ريب فيها وان رجلاً يقولون له : كنت لك جماعة تريد بك الشرّ فخذ معك من يسير بين يديك فيغتاظ من هذا القول غيظاً شديداً ويقول : والله لا أرضى ان يتحدث الناس باني سرت في خفارة احد غير سيفي ، ان رجلاً مثل هذا يحذّرونه من الموت فلا يبالي بتحذيرهم استصغاراً لشأن الموت ، واحتقاراً لمن كمن له ، فيقدم في الذي حذروه منه لا يدخل الخوف قلبه ، ولقد أعانه على هذه الشجاعة صحبته للأعراب ، وإلفته لغزوهم ، وسيره في البوادي ، ومصاحبته لسيف الدولة في كثير من غزواته ، فالرجل كان شجاعاً لاشك في شجاعته والذي يرى حياته موتاً يستوي عنده الموت والحياة .

وغاية المفرط في سلمه كغاية المفرط في حربه

فلا قضى حاجته طالب فؤاده يخفق من رعبه

واما شرهه على المال فهذا امر طبيعي ، فقد ذاق المتنبي في حداثة سنه ألم الفقر ، فما زال يسعى في طلب المال حتى اجتمع له شيء منه ، فحرص على ثروته ولم يبذّر ولا يعرف قيمة المال الا الذي يتعب في جمعه ، والمتنبي لم يغنَ من غير ان يساوره كثير من الألم ، واي ألم أعظم من ألم الحساد ، فهل يلام على حرصه ولا سيما ان الرجل كان محسّد الشأن حتى كان حساده يتمنون موته ، فكانوا يبغضونه ، ويتربصون به الدوائر ، هل يلام على اتخاذه المال جنة يدفع بها عن نفسه اذا أعرضت الدنيا عنه في يوم من الايام فما ذا كان يلاقي من الناس في حالة اعراضها ، أفكان يلاقي منهم غير الشماتة ؟

على اني أعتقد ان الرجل كان مقتصداً ولم يكن بخيلاً والفرق بين البخل وبين الاقتصاد ظاهر ، فما أظن ان ابا الطيب كان من البخلاء الذين ينشأ بخلهم عن مرض من أمراض العقل فلا يجدون في انفسهم سلطاناً عليه ، وانما كان مقتصداً يحسب للامور حساباً ويعدّ لها عدّتها حتى لا يفاجئه الزمان بمكارهه .

واما ضعف عقيدته ورقة دينه فهذا امر صحيح ، وكثيراً ماقرع المتنبي هذا الباب كما قال الثعالبي ، وقد رويت لكم الابيات التي دلت على اخلاله بالدين واستهانته بامره والظاهر ان الرجل كان على مذهب المتشككين ·

تخالف النـاس حتى لا اتفاق لهم الا على شجب والخلف في الشجب

فقيل تخلص نفس المرء سالمة وقيل تشرك جسم المرء في العطب

* * *

ولكن أظهَر أخلاق المتنبي التعظُّم وقلة المداراة ، وقد أثبت هـذه الأخلاق ما كان يقع له في مجالس سيف الدولة وكافور وفي بغداد ، فأبو الطيب كان قليل المداراة للناس ، وقد شهدتم كيف كان يتعرّض لأكابر الادباء ويستأنس بتجهيلهم ، وليس معنى هذا ان اباالطيب كان يجهل بعواقب تعرضه للناس ، و يجوانيم قلة المداراة ، ولكن الرجل كان شاذ الخلق ، يصعب عليه ان يداجي ويداري ، ولو فعل شيئاً من ذلك لملك القلوب ، ونحن نشاهد في عصرنا من لا يداجي ولا يداري ، فتنقبض القلوب عنه و يبسطون المتهم فيه ، والناس ينقادون عادةً من نواحي العاطفة والهوى ، فربّ ابتسام نبتسمه ينزع ماوقر في الصدور من غل او حقد ، وربّ تقطيب نقطبه يغرس لنا البغضاء في القلوب ، هذه هي طبيعة البشر · ولكن ابا الطيب اكبر من ان يحتاج الى شيء من المداراة والمداجاة ، فكان يجري على طبيعته لا يعبأُ بشيء من غضب الناس عليه أو طعنهم فيه ، فان له من الثقة بخلود عبقريته مايجعله يحتقر اولئك الغاضبين الطاعنين ·

ليت ثنائي الذي أصوغ فِدى من صيغ فيـه فانه خالدْ

فالطعن على اهل العبقرية يذهب جُفاءً ، وتمكث عبقريتهم في الارض ، فلا الافراط في الثناء على اهل البلاهة يمهد لهم سبيلاً الى الخلود ، ولا الافراط في تنقص اهل العبقرية يغلق الأبواب في وجه خلودهم ، نعم كان ابوالطيب يعرف هذا كله ، ولكنه أرفع من ان يُسِفَّ الى المداجاة والمداراة · ماداجى ولا دارى الا كل من لا يثق بقوة نفسه ، وكل من يحتاج الى قوة غيره ، و يستعين بها على حياته ·

على ان اباالطيب كان يجاري الناس في بعض الاحايين في الخداع ، وما مجاراته هذه الا هزء بالناس :

ولما صار وُدّ النـاس خبّاً جزيت على ابتسام بابتسام
وصرت اشك فيمن اصطفيه لعلمي انه بعض الأنام

فالرجل كان قليل المداراة ، وقلة مداراته أوغرت الصدور ، وهاجت الضغائن ، ولكن ابا الطيب كان يسخر من حسد الحساد ، واغتيـاظ المغتاظين ، فلم يفكر فيهم ولا شغل ذهنه بهم ، فقد سلّح الأدب بابيات سلاحاً يهزأ بثرثرة الثرثار وهذر المهـذار ، أفأجد حاجة الى ان أعيد هذه الابيات وقد سمعتموها في المجلس الماضي و يكفيني ان أشير منها الى بيت واحد :

ومن يك ذا فمٍ مرٍ مريضٍ يجد مراً به الماء الزلالا

او الى بيت آخر :

وأتعب من ناداك من لا تجيبه وأغيظ من عاداك من لا تشاكله

بهذه الابيات واشباهها كان المتنبيء يسحق المتطاولين للوقيعة فيه ، فما أصدق الذي وصفه بمرارة اللسان ، واي مرارة أمرّ من هذه المرارة ، ولو جمعوا كل ماقالوه فيه من طعن لما وازن حرفاً من هذه الأبيات :

بذي الغباوة من إنشادها ضرر كما تُضر رياح الورد بالجعل

* * *

نعم كان ابو الطيب مرّ اللسان ، فاذا غضب على احد أذاقه مرارة هذا اللسان فانه لما فارق سيف الدولة لم ينج سيف الدولة من قوارصه ، وفي اول قصيدة قالهـا في كافور أثر من هذه القوارص :

حببتك قلبي قبل حبك من نأى وقد كان غداراً فكن أنت وافيـا
وأعلم ان البين يشكيك بعـده فلست فؤادي ان رأيتك شاكيـا
فان دموع العين غدر بربها اذا كنّ اثر الغادرين جواريا
اذا الجود لم يرزق خلاصاً من الأذى فلا الحمد مكسوباً ولا المال باقيا
وللنفس أخلاق تدل على الفتى أكان سخاءً ما أتى أم تساخيا

فهذا الشعر كله تعريض بملك حلب ، والظاهر ان سيف الدولة كان يؤلم المتنبيء

في عطاياه ، فكان ينعم عليه ولكنه كان يبطل نعمته بالمن والاذى فاذا تأخر مدح ابي الطيب عنه انكر له بالحال (١)

أرى ذلك القرب صار ازورارا وصار طويل السلام اختصارا
تركتني اليوم في خجلة أموت مراراً وأحيا مرارا
أسارقك اللحظ مستحيياً وازجر في الخيل مهري سرارا

فكان المتنبي يضطر الى الاعتذار :

كفرت مكارمك الباهرات ان كان ذلك مني اختيارا
ولكن حمى الشعر الا القليل هم حمى النوم الا غرارا

ولا يخفى ما في الاعتذار من إعنات النفس والتشديد عليها ، واذا علمنا ان الشاعر قد تعرض له في بعض الحالات عوارض يعاف فيها حياته ، فيستعصي عليه الكلام أدركنا الألم الذي كان يساور ابا الطيب في ازورار سيف الدولة عنه اذا ابطأ عليه مدحه ، فكان سيف الدولة يقول له : انا اشتريت شعرك بالمال ، وقد أخذت مالي فاعطني شعرك ، وكل هذا لا يخلو من منة واذى ، وكل هذا لا يخلو من ايلام وايجاع ، وعلى الخصوص اذا كانت الروح الابية مثل روح ابي الطيب يحركها اقل شيء ، ومن الذي يحق له ان يلجأ الى المنة ، أسيف الدولة أم المتنبي ، أفكان سيف الدولة لولا المتنبي الا ملكاً من اولئك الملوك الذين ذهبوا بين سمع الأرض وبصرها ولم يبق لهم الا القليل من الذكر ، أفكان سيف الدولة لولا ابو الطيب يخلد هذا الخلود على شبيبة الزمان وعلى هرمه ، فالمتنبي لم يسيء الى سيف الدولة ، وانما سيف الدولة هو الذي بدأ بالاساءة ، ومع هذا كله فقد كان في قلب ابي الطيب بقية محبة لسيف الدولة بعد الانصراف عنه .

(١) كان سيف الدولة اذا تأخر عنه مدح المتنبي شق عليه واكثر أذاه وأحضر من لا خير فيه وتقدم اليه بالتعرض له في مجلسه بما لا يحب فلا يجيب ابو الطيب احداً عن شيء فيزيد ذلك في غيظ سيف الدولة ويتمادى ابو الطيب على ترك قول الشعر ويلج سيف الدولة فيما كان يفعله الى ان زاد الأمر وكثر عليه فقال قصيدته التي اولها .

واحرّ قلباه ممن قلبه شبم ومن بجسمي وحالي عنده سقم

رمى واتقى رميي ومن دون ما اتقى هوى كاسر كفي وقوسي وأسهمي

نعم ترك المتنبي مجالاً للصحبة فلم يغضب على سيف الدولة كل الغضب :

فراق ومن فارقت غير مذمم وأمٌّ ومن يممت خيرُ ميمَّم

ولما خرج ابو الطيب من مصر الى العراق كتب اليه سيف الدولة بالعودة اليه وألح عليه ، فلم يرض بذلك ابو الطيب ، وهذا يدل على أن أثر الجرح في نفسه بليغ ٠

* * *

نعم غادر المتنبيء سيف الدولة ولم ينفض كل ما في قلبه من محبة سيف الدولة ، وانما اقتصر على الاشارة الى التنغيص والمنن ، فلم تظهر مرارة لسانه الظهور كله ، ولكنه لما ترك كافوراً عرض علينا هذه المرارة في أوضح معارضها ، فان كافوراً أساء الى ابي الطيب من اول اتصاله به ، فقد أظهر له التهمة اول يوم ولم يسمح له بان ينشده وهو قاعد ، ولم يسمح له بان يجلس في مجلسه ، ووعده بان يوليه فأخلف الميعاد ، وفي خاتمة الامر نوى ان يقتله ، أفيلام ابو الطيب اذا تشفى من غيظه ، وعلى الخصوص بعد ان أطمعه كافور في الولاية ولم يذقه حلاوتها ، وانتم تعلمون كم كانت الولاية تشغل باله ، أفيلام ابو الطيب اذا آذاه كافور فردَّ اليه شيئاً من الاذى :

أمينـاً واخلافاً وغدراً وخسة وجبناً أشخصاً لحت لي ام مخازيا

لم يتزيد المتنبيء في هذا الهجو ، رمى كافوراً بالكذب ، وقد كذب عليـه ، ورماه بالاخلاف وقد أخلف وعده ، ورماه بالغدر ، وقد غدر به فأراد قتله ورماه بالجبن وقد كان يخافه اذا هو ولاَّه ٠

ليس من العجب بعد هذا كله ان تظهر مرارة لسان المتنبيء في أهاجيه في كافور ولست أنبهكم على موطن من مواطن هذه المرارة فارجعوا الى كل اهاجيه فيه فانهـا آلم ما يكون من الشعر :

من علَّم الأسود المخصيَّ مكرمة أقومه البيض أم آباؤه الصيد

أم اذنه في يد النخَّاس دامية أم قدره وهو بالفلسين مردود

اولى اللئام كويفير بمعذرة في كل لؤم وبعض العذر تفنيد

وذاك ان الفحول البيض عاجزة عن الجميل فكيف الخصية السود

وما هي عطايا كافور الى جنب ماقاله المتنبيُّ فيه ، وما هو حظ كافور من الخلود لولا شعر ابي الطيب الذي خلّده ·

على ان ابا الطيب لم يكن قليل الوفاء ، فما عرّض بسيف الدولة الاّ لأن سيف الدولة كان يؤلمه في عطاياه ، وما أفحش في هجاء كافور الاّ لان كافوراً أراد قتله ، ولقد وفى ببعض العهود ، وفاء دل على ان الرجل كان صادق الود فقد توفي ابوشجاع فاتك بمصر سنة خمسين وثلاث مائة فرثاه المتنبيُّ بعد خروجه منها اى بعد انقطاع رغبته في كل عطية من عطايا فاتك ، وتوفيت اخت سيف الدولة بميافارقين ، وورد خبرها الى الكوفة فرثاها ابو الطيب وعزى اخاها بها سنة اثنتين وخمسين وثلاث مئة اي بعد مفارقته سيف الدولة وبعد عزمه على ان لا يعود الى مجالس سيف الدولة ، وجاء في هذه القصيدة ابيات دلت على حسن وفائه :

طوى الجزيرة حتى جاءني خبر فزعت فيه بآمالي الى الكذب
حتى اذا لم يدع لي صدقه املاً شرقت بالدمع حتى كاد يشرق بي

تبين لكم ان ابا الطيب كان لا يداري والغالب على الذين تقل مداراتهم التعظم والكبرياء وقد يكون تعظمهم في بعض الاحيان خلقاً ظاهراً يظنه الناس خلقاً باطناً فقد تغش الظواهر فلا تنم عن حقائق البواطن ، ولسنا ندري أكان ابو الطيب من أصحاب العنجهية الظاهرة أم تمكنت الكبرياء من باطنه ، فكان متعظم الظاهر والباطن ، فالذي دل عليه شعره انه اكثر من الفخر بنفسه في كل حال من احواله ، فلا يجب ان نشبهه باحد لأنه لا شبيه له :

أمط عنك تشبيهي بما وكأنه فما احد فوقي ولا احد مثلي

وقد كان يشعر بعجبه ، و يوضح سبب هذا العجب :

ان اكن معجباً فعجب عجيب لم يجد فوق نفسه من مزيد

ولكن الذي يزعج في بعض الاحوال ان لفظة « انا » لا يكاد يخلو منها شعره ، فلقد حار في الشيء الذي يشبه به نفسه ، فمرة هو صخرة الوادي والجوزاء :

انا صخرة الوادي اذا مازوحمت واذا نطقت فانني الجوزاء

ومرة هو الاديب الذي لا اديب غيره :

انا الذي نظر الاعمى الى أدبي وأسمعت كلماتي من به صمم

وحيناً هو المبدع لكل شيء ·

انا السابق الهادي الى ما اقوله اذ القول قبل القائلين مقول

وحيناً هو السمهري :

وما انا الا سمهري حملته فزين معروضاً وراع مسودا

وما الدهر الا من رواة قصائدي اذا قلت شعراً أصبح الدهر منشدا

لقد امتلأ ابو الطيب عجباً ، واظن انه كان يقلق اهل عصره في بعض الاحايين بهذا العجب ، فلو حدثنا محدث ، واخذ في كل فرصة يحدثنا عن نفسه و يردد لفظة «انا» « انا » لما فرغ من احاديثه دون ان يغادر في قلوبنا شيئاً من الملل ، لقد يحتمل المرء اذا فخر بنفسه مرة او مرتين ولكنه اذا جعل مجيراه هذا الفخر فقد تثقل وطأته علينا ، ولا شك في ان ابا الطيب قد ثقلت وطأته على اهل عصره في بعض الاحيان ·

ان تعظمه ظاهر في شعره لا يكاد يخفيه فهو كثير التكلم على نفسه ، لا يبالي بما ينشيء هذا التكلم من الآثار في النفوس ، ولم يقتصر على التغني بجمال عبقريته ولكنه جاوز هذا التغني الى شيء من العجب والفخر ، وقد يكون هذا المذهب مدعاة الى الاضجار ، اننا نحب ان يذوق الناس محاسننا من تلقاء انفسهم اي من دون ان نذيقهم اياها ، اننا نحب ان يشعروا بهذه المحاسن من غير ان نشعرهم بها فاذا توخينا اظهارها والتنبيه عليها والاشارة اليها فقد يذهب شيء من آثارها في النفوس ، وربما عادت هذه المحاسن مساوئ ، فابو الطيب كان يحب ان يذيق الناس محاسنه بنفسه فهو لا يريد ان يدع لهم مجالاً لذوقها بانفسهم ، ولعل هذا السر في ثقل وطأته على الناس ، وقد يكون السبب في لجوئه الى هذا المذهب ان الناس كانوا يبخسونه حقه ، ويطمسون من آثار حسناته فكان يضطر الى التنويه بحسناته :

واذا خفيت على الغبي فعاذر ان لا تراني مقلة عمياء

نعم كان ابو الطيب متعظماً في الظاهر وفي الباطن وكثيراً ما كان يجعل نفسه في اماديحه بمنزلة الملوك الذين كان يمدحهم :

انما التهنئات للاكفاء ولمن يدّني من البعداء

وانا منك لايهني عضو بالمسرات سائر الاعضاء

وربما كان حظه من مدح نفسه في بعض شعره أوفى من حظ الممدوحين ، وقد حمله تعظمه هذا على احتقار الناس ، وما ذهب عنكم امر هذا الاحتقار ، ولقد هزأ بكافور نفسه في أماديحه فيه ، فأخلق به ان يهزأ به بغير كافور فكان كثيراً ما يلجأ الى التصغير حتى قال فيه ابوالعلاء : ان الرجل كان مولعاً بالتصغير لايقنع من ذلك بجنادة المغير والصحيح انه أولع بالتصغير فلم يكتف بتصغير الأحمق :

مقالي للأُحيمق يا حليم

او بتصغير الخادم :

ونام الخويدم عن ليلنا

او بصغير الشاعر :

أفي كل يوم تحت ضبني شويعر

ولكنه صغّر اهل زمانه كلهم :

أذمّ الى هذا الزمان اهيله

دمشق : في ١٩ نيسان سنة ١٩٣٠

المقارنة

بين المعري والخيام(١)

تقوم محاضرتي على المقارنة بين شخصيتي شاعرين حكيمين هما ابو العلاء المعري العربي وعمر الخيام الفارسي واكبر الظن ان ليس في الحاضرين الكرام من لا يعرف شيخ المعرة الكبير او يجهل ادبه ورأيه في الحياة ونظره في الكون ، اذ انه اشهر من نار على علم ، لذلك ارى من الضرورة ان اتكلم اولاً عن شخصية عمر الخيام . حتى اذا اطلعتم عليها وفهمتم مناحيها ، سهل علينا جميعنا الانتقال الى الالمام برأي هذا الحكيم الفارسي ومعرفة اوجه الشبه بينه وبين حكيمنا الجليل ابي العلاء . وقبل ان اخوض هذا البحث ارغب ان ابين لكم وجه اهتدائي الى هذا الموضوع وما هي الاسباب التي دفعتني الى معالجته وما علاقة فتى عربي بالفارسية وما هي صلته بهذا المفكر الفارسي ؟ .

ولدت في كربلاء ، ولا اغالي اذا قلت انها المدينة التي يحج اليها في كل عام مائةالف فارسي ، لزيارة تربة سيدنا الحسين الشهيد واخوانه ، ولا يقنع هؤلاء الزوار وفيهم العالم والغني والامير بالمكوث فيها بضعة ايام ، بل فيهم من يبقى فيها مجاوراً اعواماً طويلة ، وفيهم من ينقل اليها تجارته واعماله ويتخذها له موطناً ثانياً . فبمقتضى هذا الاختلاط اصبح كل من ولد او سكن فيها يتكلم بالفارسية ويلم بها على اختلاف لهجاتها .

ولما فتحت عيني في كربلاء وترعرعت فيها ، واخذت اميز بين الخير والشر ، والنار والنور ، وجدت نفسي اتكلم بالفارسية العامية كباقي الفتيان ، بيد اني وجدت في بيت ابي عجوزاً شمطاء قد وهن عظمها ، وفشا المشيب في رأسها ، ووجدت كل من في البيت يضمر لها حباً كثيراً ويحترمها احتراماًشديداً ، وكانت (زن اغا) او (بي بي جان)الآمرة الناهية في طول البيت وعرضه لا يعصى لها امر ، ولا ترد لها ارادة ، وقد نشأت على احترامها كسائر افراد العائلة غير اني كنت اجهل علاقة هذه الفارسية ببيت والدي ،

---

(١) محاضرة القاها في بهو المجمع العلمي العربي الاستاذ السيد احمد حامد الصراف من ادباء العراق .

وقد قصت عليَّ امي امرها فعلمت انها كانت زوجة غني فارسي ، كان قد هجر وطنه شيراز وشد الرحال الى كربلاء زائراً فطاب له العيش فيها ، فأصبح مجاوراً ، وقد توثقت بينه وبين جدي اواصر المحبة والوداد ، فكانا يتهـاديان و يتزاوران ، غير ان نكد طالعه جره الى استعمال الافيون فاستنزفت امواله فأنزلـــ من عرش الثراء واجلس على بساط الفقر ، فهجره خدامه وتركته حاشيته ، واصبح مثقلاً بالديون ، واخيراً صرعته هـذه الآفة وسلبته روحه ، وبقيت زوجته وحيدة لا معين لها ولا نصير ، الى ان طحنها الفقر ووطئها الحزن فوقعت مريضة . ولما بلغ جدي ما جرى لها هزته الحمية وحركته المروءة فنقلها الى بيته وجاء لها بالاطباء فعالجوها حتى شفيت وقوي جسدها ، فجعلهـا مربية لاولاده وبناته ، وكان يحترمها ويحسن معاملتها ويوصي بهـا خيراً . وكانت (زن اغا) احدى حفيدات (فتح علي شاه) ملك فارس القـاجاري وهي على جانب عظيم من الفضل والادب والاخلاق وكانت لبيبة تجيد الانشـاء وتنظم القريض في الفارسية ، وتستظهر اروع الشعر واحسنه في الفارسية وكانت تلم بنكات الشعراء وتحفظ الشيء الكثير من الامثال الفارسية والعربية ، وقد تولت (زن اغا) تعليم امي واخواتها ، ادركتها ولم يبق في فمها غير ناب واحد ، وكنا اذا اجتمعنا عندها في ليالي الشتاء حدثتنا حديثاً لذيذاً عن نكات الشعراء والادباء حتى يتغشانا النعاس فتصرفنا الى مضاجعنا واحداً اثر واحد .

في احدى ليالي الشتاء من سنة ١٩١٨ اجتمعنا عند (زن اغا) وكانت تدير علينا اكواب الشاي وقد امسكت بيدها غليونها الطويل واستعدت لتقص علينا مما خزنته في صدرها .

قالت : احدثكم الليلة عن احد القلندرية واسمه عمر الخيـام وكان سكيراً مدمناً للخمرة مفتوناً بالمشعشعة كافتتان ابي نواس بها :

حمل ذات يوم ابريق خمرته وصعد الجبل ليحسو كؤوسها وكانت تصحبه ابنته وبينما كانــ يمتع نفسه بلذيذ طعمها هبت ريح شديدة فحطمت ابريق مدامه وانسكب ما في الابريق على الارض فغضب وقال مخاطباً الرب بهذه الرباعية :

ابريق مي مراشكستي ربي   برمن درعيش رابيستي ربي
برخاك فكندي مي كلكون مرا   خاكم بدهن مكر تومستي ربي

اي - يا آلهي حطمت ابريق خمري واوصدت باب الطرب في وجهي وقد سكبت على الارض خمرتي اللازوردية تراب بفمي فهل انت مثلي سكران يا آلهي ·

ولما اتم انشاد هذه الرباعية اسود وجهه حالاً فقالت له ابنته يا ابتي لقد اسود وجهك فطلب المرآة ونظر الى وجهه فالفاه اسود فاحماً فعلم ان الله قد غضب عليه فخاطب الله مستغفراً بهذه الرباعية ·

ناكرده كنه درجهان كيست بكو　　وانكس كه كنه نكردچون زيست بكو

من بد كنم وتو به مكافات دهي　　بس فرق ميان من وتوجيست بكو

اي — يا آلهي قل لي من الذي لم يرتكب خطأ في هذه الحياة وكيف عاش انسان ولم يرتكب خطيئة ؟ انا اعمل سوءاً وانت تقابلني بسوء مثله اذاً اي فرق بيني وبينك يا آلهي ·

وبعد انشاد هذه الرباعية عاد وجهه الى ما كان عليه ·

بهذا حدثتني (زناغا) عن عمر الخيام قبل اثني عشر عاماً ، وقد بعثت هذه الاسطورة اللذيذة في نفسي رغبة الاطلاع على شعره ومعرفة شخصه ، فطلبت اليها ان تدرسني ديوانه فرفضت طلبي زاعمة ان في شعره ما لا يتفق مع الشرع فالححت عليها الحاحاً شديداً فاخذت تدرسني رباعياته · واذا بي امام شاعر حكيم وفلكي شهير وفيلسوف مفكر له نظرة في الحياة غير هذه النظرات وتأمل في الكون غير هذه التأملات ، وانه لم يكن بالقلندري السكير وانما كان رجلاً فذاً منقطع النظير وانه يعد بلا مدافع من حكماء المسلمين المفكرين ·

اما وقد اطلعتم الآن على الاسباب التي دفعتني الى البحث في ادب الخيام حق لكم ان تستفسروا مني سائلين من هو عمر الخيام ، وفي اي عصر عاش ، وما هو رأيه في الحياة وما هو اثر ادبه ورأيه في الفرد وفي المجتمع ؟ :

* * *

في سنة ١٩٢٧ نشر العالم الكبير الدكتور (ميلار) مقالاً في جريدة (المورننك بوست) ادعى فيها ان شخصية عمر الخيام محاطة بغلالة من غموض وابهام · وقد نسجت حوله اساطير غامضة تدعو الى الشك في وجوده ، وجاء ببراهين واهية واهنة انكر فيها عمر الخيام وزعم انه كان شخصاً موهوماً قد تخيلته ادمغة الناس تخيلاً فانبرى له اذ ذ ا

العالم الجليل القدر (السر دنيسون روس) مدير مدرسة الدراسات الشرقيــة في لندن وفند اقواله بدلائل تنحصر في خمس نقاط ، ولما كنت قد قضيت بضعة اعوام في درس حياة هــذا الحكيم وادبه شعرت في نفسي بقوة للرد عليه فرددت عليه بمقال اثبت فيه شخصية المبحوث عنه بثلاث عشرة وثيقة تاريخية لا غبار عليهــا ، واذ كان الذي يهمنا انما هو الاطلاع على ترجمته لذلك اكتفي بسرد الوثائق الهامة منها :

* * *

ان من اقدم الوثائق التاريخية التي ورد فيها اخبار عن عمر الخيام وحوادثه كتاب (جهار مقاله) لمؤلفه احمد بن عمر بن علي النظامي العروضي السمرقندي الذي تتلمذ لعمر الخيام وزار قبره في سنة ٥٣٠ هـ فقد قيل له ان استاذه توفي منذ اربع سنوات .

والنظامي هذا ذكر في المقالة الثالثة التي خصها باخبار الفلكيين ماننقله : في سنة ٥٠٦ هجرية في مدينة (بلخ) وفي صرح سراي (امير بو سعد جره) حظيت بمقابلة الاستاذ عمر الخيــام والامام مظفر اسفزاري وفي اثناء الحديث سمعت حجة الحق اي (عمر الخيام) يقول انني اذا مت فان قبري سيكون في مكان تهب عليه نسمات الشمال و ينتشر عليه الزهر والورد — وقد اخذني العجب من قوله لاني كنت اعتقد ان خياماً لا يتكلم الا عن روية . وفي سنة ٥٣٠ هجرية بلغني انالتراب قد اخفى ذلك العظيم منذ اربع سنوات وترك العالم السفلي يتيماً . واذ كان له حق التعليم عليّ ذهبت الى زيارة قبره يوم الجمعــة ومعي رجل يدلني على قبره فأخذني الى مزار حيرة والتفت الى اليسار فالفيت قبر عمر الخيام بجانب جدار حديقة مهجورة وقد نبت حول القبر اشجــار المشمش وكان منوراً وكان الزهر يتساقط على قبره حتى توارى قبره . وقد ذكرت ما قاله لي في بلخ فبكيت ولم اجد في هذا العالم نظيره اسكنه الله تبارك وتعالى جنانه بمنه وكرمه .

وبين هؤلاء الشهرزوري شمس الدين محمد بن محمود : وقد ذكر عمرالخيام في كتابه (نزهة الارواح وروضة الافراح) الذي الفه بين سنة ٥٨٦ — ٦١١ .

عمر الخيام نيسابوري الآثار والميلاد كان تلو ابي علي (ابن سينا) في معرفة اجزاء علوم الحكمة الا انه كان سيء الخلق ضيق العطن تأمل كتاباً باصبهان سبع مرات وحفظه وعاد الى نيسابور فأملاه فقوبل بنسخته الاصلية فلم يوجد بينهما تفاوت . وله ضنة بالتصنيف

والتعليم وله مختصر في الطبيعيات ، ورسالة في الوجود ورسالة في الكون والتكليف وكان عالماً بالفقه واللغة والتواريخ ·

ودخل عمر يوماً على شهاب الاسلام الوزير عبد الرزاق وكان عنده امام القراء ابو الحسن الغزالي وكانا يتكلمان في اختلاف القراء في آية فقال الوزير على الخبير سقطنا فسئل عمر عن ذلك فذكر وجوه اختلاف القراء وعلل كلام كل واحد منهم وذكر الشواذ وعللها وفضل وجهاً واحداً فقال الغزالي كثر الله في العلماء مثلك اجعلني من ادمه[1] اهلك وارض عني فاني ما ظننت احداً من القراء في الدنيا يحفظ ذلك ويعرفه فضلاً عن واحد من الحكماء · واما اجزاء الحكمة من الرياضيات والمعقولات فكان ابن بجدتها ·

ودخل حجة الاسلام الغزالي عليه وسأله عن تعيين جزء من اجزاء الفلك القطبية دون غيرها مع كونه متشابه الاجزاء فطول الخيام الكلام وابتدأ من الحركة من مقولة كذا وضن بالخوض في محل النزاع وكان هذا من دأب ذلك الشيخ المطاع حتى اذن الظهر فقال الغزالي جاء الحق وزهق الباطل وقام ·

وكان السلطان ملكشاه ينزله منزلة الندماء والخاقان شمس الملوك ببخاري يعظمه غاية التعظيم ويجلس الامام معه على سريره ·

وممن ذكره من مؤرخي العرب الوزير جمال الدين ابو الحسن علي ابن القاضي الاشرف يوسف القفطي المتوفى سنة ٦٤٦ قال :

امام خراسان وعلامة الزمان يعلم علم اليونان ويحث على طلب الواحد الديان بتطهير الحركات البدنية لتنزيه النفس الانسانية ويأمر بالتزام السياسة المدنية حسب القواعد اليونانية ، وقد وقف متأخرو الصوفية على شيء من ظواهر شعره فنقلوها الى طريقتهم وتحاضروا بها في مجالسهم وخلواتهم وبواطنها حياة للشرع الواسع ومجامع للأغلال جوامع ، ولما قدح اهل زمانه في دينه واظهروا ما أسره من مكنونه خشي على دمه وامسك من عنان لسانه وقلمه وحج متاقاة لا تقية وابدى اسراراً من السرار غير نقية ولما حصل ببغداد سعى اليه اهل طريقته في العلم القديم فسد دونهم الباب سد النادم لا سد النديم ورجع من حجه الى بلده يروح الى محل العبادة ويغدو ويكتم اسراره ولا بد ان تبدو

(١) كذا في الاصل ·

وكان عديم القرين في علم النجوم والحكمة وبه يضرب المثل في هـذه الانواع لو رزق العصمة وله شعر طائر نظهر خفياته على خوافيه وتكدر عرق قصده كدر خافيه . فمنه :

اذا رضيت نفسي بميسور بلغـة يحصلهـا بالكد كفي وساعدي
امنت تصاريف الحوادث كلها فكن يازماني موعدي اوموعدي
اليس قضى الافلاك من دورها بان تعيـد الي نحس جميع المساعد
فيا نفس صبراً عن مقيلك انمـا تخر ذراهـا بانقضاض القواعد
ولي فوق هـام النيرين منازل وفوق مناط الفرقدين مصاعدي
متى ما دنت دنياك كانت بعيدة فواعجبي من ذا القريب المباعد
اذا كان محصول الحياة منية فسيان حالاً كل ساع وقاعد

جاء في (ج ٤ ص ٦١) من تاريخ روضة الصفا للمؤرخ الفارسي الشهير خواند مير نقلاً عن وصايا الوزير نظام الملك ما ملخصه :

قرأت اربع سنين على الاستاذ موفق الدين النيسابوري فصادفت عنـده تلميذين ذكيين عمر الخيام وحسن الصباح ، فصادقتهما وكنا بعد الدرس نجتمع لتكراره والمذاكرة فيه وعندما اجتمعنا يوماً لمثل ذلك قال لنا حسن الصباح لقد اشتهر ان من يقرأ القرآن او الحـديث على الاستاذ موفق الدين يصبح ذا حظ عظيم ومنزلة سامية فاذا كان احدنا مصداقاً لذلك فما الذي يجب عليه لصديقيه فقلت له فما رأيك انت قال ان يشرك كل منا صديقيه فيما يناله من النفع فاتفقنا على ما رآه .

وبعد حين من الدهر جاءني عمر الخيام على عهد السلطان الب ارسلان السلجوقي فقابلته بمزيد الحفـاوة وقلت له الآن وجب عليّ ان ابين درجة علمك وفضلك للسلطان واطلب منه ان يجعلك ملازماً لمجلسه حتى نكون شريكين في الجاه عنده كما كنا شريكين في الدرس لدى موفق الدين ، فقال اشكر لك حسن ظنك بي ، ولكنّ افضل ان تأمر لي بشيءٍ اصلح به شأني كي اتمكن من ممارسة العلوم ومزاولة الفنون لان ملازمتي لمجلس السلطان تمنعني عما اتوخاه ، فجعلت له راتباً سنوياً قدره ١٢٠٠ ذهباً يتقاضاها من املاك نيسابور .

وبعد برهة من الزمن قدم عمر الخيام مرو على عهد السلطان ملك شاه السلجوقي وكان قد اشتهر في العلوم شهرة فائقة ولا سيما في الرياضيات وعلم الفلك فنال حظوة عظيمة

عنده وحاز منزلة كبار العلماء والحكماء ، ولم يجد نظام الملك في حسن الصباح خيراً لانه اراد مزاحمته في الديوان ·

* * *

ولقد علمتم الآن ان عمر الخيام نيسابوري المنشأ وانه عاش في اكناف الدولة السلجوقية وعاصر ملكشاه الب ارسلان وقد تتلمذ في عنفوان شبابه لموفق الدين النيسابوري مع نظام الملك والحسن الصباح في مدرسة واحدة وانه زار بغداد وتحاور مع الامام الغزالي في قضايا شرعية وفلكية وقد اثنى عليه الامام الغزالي وان له تآليف قيمة في العلوم الشائعة في عصره وانه قد توفي في اوائل القرن السادس الهجري · بقي علينا ان نفهم ماهي الافكار التي تجول في خاطر الحكيم وما هي تلك النظرة التي كان يرسلها الى الحياة وما هي فلسفة هذا الرجل الذي ملأت شهرته ارجاء العالم واستهوى شعره الناس ·

اري ان اتلو على مسامعكم طرفاً من شعره ليتوضح لكم جلياً رأيه الصريح قال :

زآن بيش كه غمهات شبيخون آرند فرماي كه تاباده كلكون آرند
تو زر نهٔ اي غافل نادان كه ترا درخاك نهند و باز بيرون آرند

قبل ان تهاجمك همومك مرهم ان يأتوك بمدامة وردية · انت لست ذهباً ايها الجاهل الغر ليدفنوك في التراب ثم يخرجوك ·

اي آنكه نتيجهٔ جهار وهفتي در هفت وجهار دائم اندر تفتي
مي خور كه هزار بار بيشت كفتم بازآمدنت نيست جو رفتي رفتي

يا من هو نتيجة اربعة عناصر وسبع سموات حتى م انت تتألم بالتفكر فيهما اشرب الخمرة فقد قلت لك الف مرة مالك من اوبة فاذا ذهبت ذهبت ·

جام ومي وساقي بر لب كشت بهتر ز بهشتي كه خير بودش دشت
مشنو سخن بهشت ودوزخ از كس كه رفته بدوزخ وكه آمد زبهشت

ان خيراً من الفردوس الذي وعدته كأس وخمرة وساق في جنب روضة · لاتسمعن من احد حديث الجنة والجحيم من ذا الذي ذهب الى الجحيم ومن ذا الذي جاء من الجنة ·

جون حاصل آدمي در ين جاي دودر جزد رد دل ودادن جان نيست دكر
خرم دل آنكه يك نفس زنده بنود وآسوده كسي كه خود نزاد ازمادر

ان حاصل الانسان من هذه الدار ذات البابين الالم وزهوق الروح . فهنيئاً لمن يعيش ساعة وطوبى لمن لم يولد من امه .

روزي كه دومهلتست ميخورمي ناب كاين عمر دوروزه برنگردد درياب
داني كه جهان رو بخرابي دارد تومنيز شب وروزهمي باش خراب

اشرب الخمرة الصافية مرتين في كل يوم . فان هـذا العمر القليل لا يعود اليك مرة اخرى مادمت تعلم ان مصير الكون الى الخراب . انت ايضاً كن خراباً ليلاً ونهاراً .

ازحادثهٔ زمان آينده مپرس وزهرچه رسد جونيست باينده مپرس
اين يكدمه نقدر اغنيمت ميدان از رفته ميند يش وزآينده مپرس

لا تسل عن حادث الزمان الآتي وعن كل ما يصيبك منه لانه لا يدوم اغتنم الساعة التي انت فيها ولا تفكر فيما مضى ولا تحفل بما يأتي .

لقد بان لكم رأي عمر الخيام في الحيـاة عرياناً صريحاً فان نظرة واحدة الى المعاني التي تضمنتها هذه الرباعيات تكفي لان توضح للباحث ان الطريق الذي يوصينا الخيام ان نسلكه هو طريق مظلم خطر يضل الانسان فيه ولا يهتدي الى السبيل السوي فان هذه الفلسفة السلبية التي بمقتضاهـا يتجرد الانسان عن كل شيء سوى الساعة التي يعيش فيها فلسفة هـدم وتخريب لا فلسفة بناء وتعمير لانها فلسفة ترمي الى هدم امسنا الذي نحن ابناؤه والذي نستمد منه عناصر القوة في يومنا لنعيش في غد عيشة رغدة .

امس واليوم وغد سلسلة ذات حلقات ثلاث لا تنفصم عراها ولا تنفك احداها عن الاخرى ولا يمكن تصور تجزئتها لانها الحياة والحياة لا تتجزأ لان عناصر الحياة قوة واحدة في شكل مادة واحدة وان اختلفت مظاهرها وحياتنـا اليومية حافلة بالاحلام والاماني والآلام وغيرها مما يختلج في الصدر في كل لحظة و يرد على الخاطر في كل برهة والانسان لا يستطيع ان يتخلى عن امانيـه وآلامه واحلامه وخيالاته واوهامه اذ لا مندوحة له من هذه السلسلة التي لا تنفك تتجدد في كل يوم بل في كل لحظة ، على ان هذه الانفعالات كلها وليدة الحوادث وكل حادث يستحيل الى ماض بمجرد وقوعه وهذه المشاكل او الانفعالات النفسية تحتاج الى متسع من الوقت لحلها وهذا الوقت هو الغد فأمس واليوم وغد حلقات الحياة والوجود وكلها سلاسل وقيود لا يمكن التملص منها .

اذاً فما هو السر الذي جعل الناس يتهافتون ويتلذذون بآرائه وكلماته .

لقد اراد عمر الخيام ان يحل المعضلة العظيمة التي لم يستطع ان يحلها احد قبله ، اراد ان يفهم الحياة ففشل ولما فشل تشاءم ولما تشاءم اخذ يصور الحياة بابشع صورة وزعم انها ملأى بالاوجاع والاتراح مترعة بالأذى ، لذلك حث على عدم الاهتمام بها واوصى بطلب اللذة اغتناماً لهذه الفرصة فهذه الفلسفة السلبية تلائم ذوق الفرد خصوصاً البائس المتألم ، ورأى الخيام في الحياة يتلخص فيما يلي :

ما دام ليس في امكاننا ايقاف دورة الفلك وما دمنا لا نعرف من اين جئنا والى اين نذهب وما دمنا مسيرين لا مخيرين وما دام العمر قصيراً والحياة اذى فيجب قتل هذا الوقت المؤلم القصير بالخمرة وعدم الاهتمام بالتقاليد .

هذه كلمة موجزة في فلسفة عمر الخيام ، والآن نعود الى اصل الموضوع وهو المقارنة بين المعري والخيام .

* * *

كنت في اثناء درسي لرباعيات الخيام اشعر بوجود نسب متين وقرابة فكرية بين هاتين الشخصيتين وكنت كلما امعنت النظر في فلسفة الخيام ازددت عقيدة بوجود شبه عظيم بين هذين الفذين ، ولو ان توأمين نشأا في حضن أب وأم وتعلما في مدرسة واحدة وتربيا في بيئة واحدة وطرأ عليهما من شؤون الحياة في الصغر والكبر ما يكونان به شريكين فيه فتماثلت اخلاقهما وطباعهما وتقاربت آراؤهما ونظراتهما في الكون ، لقلنا ان المعري والخيام اخوان شقيقان وفرعان من غصن واحد فكأن المشيئة الالهية قد قدتهما من أديم واحد وجبلت طينتهما في آنية واحدة وفي آن واحد وحبتهما طبعين وفكرين متقاربين متشابهين .

***

ان من غريب الاتفاق ان يكون الحكيمان متماثلين في الاخلاق فكلاهما كان منقبض النفس ضيق الصدر منزوياً عن الناس زاهداً فيما بايديهم ماقتاً لهم مستهزءاً بهم مستخفاً بعقائدهم ومبادئهم وكلاهما مبغض للدنيا متطال لامور غامضة أجل شأناً واعظم قدراً من حطامها وكلاهما متطلع تائق الى اسرار الحياة معني بها ، وكلاهما ابي النفس صادق

القول مطلق الرأي جريء على البوح بمذهبه ، الا فترات كانا كلاهما يراعي فيها خواطر الناس خشية الاذى والضرر وكلاهما فقير لم يملك شيئاً من حطام الدنيا ، ولو ارادا لنالا وفراً وذهباً وفضة ، وكلاهما عاش عزبا لم يتزوج وكلاهما نشأ في عصر حافل بالعلوم والمعارف فائض بالآراء الفلسفية ، اذ في عصرهما ظهر مذهب الاسماعيلية والباطنية وفي عصرهما اجتمع اخوان الصفاء خفية وابرزوا رسائلهم الشهيرة . واقوال الفيلسوفين على تقارب في العلوم والمعارف . اما تآليفهما فقليلة ايضاً وأما السياسة في زمانهما فمتشابهة فقد كانت نار الفتنة مشتعلة في سورية في عصر المعري . واما فارس فقد كانت رحى الحرب فيها دائرة كل المدة التي عاش فيها الخيام فانه نشأ في اكناف الدولة السلجوقية التركية التي قامت مقام لدولة الغزنوية ولم تقم تلك الدولة الا بالسيف وكان الخيام يشهد ذلك وقد اتسع سلطان هذه الحكومة في ايام ملكشاه ٤٦٥—٤٨٥ الذي كان يجل عمر الخيام اجلالاً عظيماً حتى عهد اليه بناء الرصد وترتيب الزيج .وفي عهده اسس زميله وشريكه في الدرس (حسن الصباح) مذهب الباطنية وفي ايامه ارتكب الباطنية المنكرات والموبقات وفيها اغتيل زميله وشريكه الآخر (نظام الملك) بطعنة باطني .

تضاربت آراء الباحثين في السنة التي ولد فيها عمر الخيام كما تشعبت آراؤهم في السنة التي توفي بها فالمؤلفون الغربيون يرجحون ان وفاته كانت سنة ٥١٧ هجرية وهو القول المشهور وقد ذكرت اقوال عديدة في وفاته وكلها بين سنة ٥٠٨ —و٥٣٠ وعلى كل حال فانه توفي في اوائل القرن السادس للهجرة وذكر عن النظام — وهو تلميذ خيام — انه زار قبره في نيسابور سنة ٥٣٠ وقيل له ان الخيام توفي منذ سنوات .

وذكر البيهقي في كتابه حكماء الاسلام وفاته فقال : حكى لي ختنه الامام محمد البغدادي انه كان يتخلل بخلال من ذهب وكان يتأمل في بحث الالآهيات من الشفاء فلما وصل الى فصل (الواحد والكثير) وضع الخلال بين الورقتين وقام وصلى واوصى ولم يأكل ولم يشرب فلما صلى العشاء الآخرة سجد وكان يقول في سجوده اللهم تعلم اني عرفتك على مبلغ امكاني فاغفر لي وان معرفتي اياك وسيلتي اليك ومات رحمه الله تعالى .

اما ابو العلاء المعري فقد اجمعوا على انه ولد في سنة ٣٦٣ هجرية وتوفي عاشر ربيع الاول من سنة ٤٤٩ . فعلى هذا يكون المعري اقدم من الخيام بما يزيد على نصف

قرن وهي مدة كافية لنشر كتب ابي العلاء ورسائله ودواوينه في اقطار العالم الاسلامي ولا يبعد ان يكون الخيام اقتنى كتب ابي العلاء في طريقه الى الحجاز واطلع عليها . على اننا لا نريد ان نتهم الخيام ولا نغض من قدره ولا نقدح في علمه وفضله وعبقريته انما نريد ان نبحث عن هذه الاراء المتشابهة التي اشترك فيها الحكيمان ، فالمعري متقدم على زميله وعربي بحت لا يعرف الا اللغة العربية والخيام متأخر فارسي مستعرب يعرف اللغتين وله شعران عربي وفارسي .

فهل الخيام عيال على المعري في مذهبه الفلسفي والشعري ينبغي ان نذكر أمثلة بهذا الخصوص .

« اتهامهما بالزندقة »

كان كل واحد من الشيخين متهماً بضعف الايمان والمروق عن الشريعة وموصوماً بالتعبير الذي كان شائعاً في ذلك العصر وهو (الزندقة) ذلك الجرم الذي ما الصق باحد الا كان جزاؤه الموت وكانت فرائص الاحرار ترتعد خوفاً منها وقد ذهب بشار بن برد وصالح بن عبد القدوس والحلاج والسهروردي وغيرهم ضحايا هذه التهمة .

اما ابو العلاء فقد ذكروا انه دخل عليه ذات يوم رجل من قراء المعرة يعرف بابي القاسم فطلب منه بعض الناس ان يقرأ بعضاً من الآي الكريم فقرأ (ومن كان في هذه اعمى فهو في الآخرة اعمى واضل سبيلا) يريد بذلك إهانة الشيخ ، وقد تألم ابو العلاء من ذلك الوقح فهجاه ببيتين .

ودخل عليه الوزير المشهور بالمنازي فسأله ما هذا الذي يروبه عنك الناس؟ قال : قوم حسدوني فكذبوا علي وقد تركت لهم الدنيا قال المنازي والآخرة فقال ابو العلاء (والآخرة ؟) ثم اطرق ولم يكلمني حتى قمت عنه .

وزاره بعض القضاة فقال له ابو العلاء لم اهج احداً . قال صدقت الا الانبياء قال فتغيرلونه .

وقد ابتلي عمر الخيام بما ابتلي به صاحبه فقد وصمه (شيخ نجم الدين الرازي) في كتابه (مرصاد العباد) الذي الفه سنة ٦٢١ هجرية بانه ممن يدين بدين الفلاسفة والدهريين الطبيعيين وكان القائلون بهذا المذهب كفاراً ضلالاً في نظر الناس وقد احتج نجم الدين على ضلاله وزندقته باحدى رباعياته وقد تقدم ذكرها في ترجمته .

ومما يؤيد ظن الناس به ظناً سيئاً واتهامهم له بالزندقة قول (القفطي) (ولما قدح اهل زمانه في دينه واظهروا ما اسره من مكنونه خشي على دمه وامسك من لسان قلمه وحج متاقاة لا تقية وابدى اسراراً من السرار غير نقية ... الخ) وقول القفطي فيه يدل على ان الناس كانوا يناوئونه و يتناوشونه بالكلام القارص البذيء ولا اشك في ان الذين كانوا يتهجمون عليه و يغرون العوام بايذائه هم رجال الدين وهذا شأنهم في كل عصر مع الاحرار والعظماء الا ان الخيام لم يقصر في رد كيدهم في نحورهم واظهار ما يبطنونه من المكر والخبث فقد قذعهم في كثير من رباعياته فمن ذلك قوله في المفتي واظنه كان من مناوئيه :

اي مفتي شهر ازتو بر كار تريم   باابن همه مستي زتوهشيار تريم
ماخون رزان خوريم وتوخون كسان   انصاف بده كدام خونخوار تريم

يا مفتي المدينة أنا احسن منك عملاً ومع كثرة سكرنا فانا أصحى منك أنا اشرب دم العنقود وانت تشرب دم الناس فانصف فأينا شراب الدماء .

« اعتقادهما بالجبر »

كان كلا الحكيمين معتقداً بمذهب الجبر دائناً به . فقد نص ابو العلاء المعري في مقدمة (اللزوميات) على انه لم يؤلف هذا الكتاب مختاراً وانما الفه بقضاء خفي لا يعرف كنهه وحقيقته . وقد ذكر الجبر في اللزوميات مراراً كثيرة مثبتاً اياه ومناضلاً عنه فمن قوله فيه :

خرجت الى ذي الدار كرهاً ورحلتي   الى غيرها بالرغم والله شاهد
فهل انا فيما بين ذلك مجبر   على عمل ام مستطيع فجاهد

...

ما باختياري ميلادي ولا هرمي   ولا حياتي فهل لي بعد تخيير

...

جئنا على كره ونرحل رُغَّماً   ولعلنا ما بين ذلك نجبر

...

وردت الى دار المصائب مجبراً   واصبحت فيها ليس يعجبني النقل

...

ولم نحلل بدنيانا اختياراً ولكن جاء ذاك على اضطرار

اما عمر الخيام فكان رأيه صريحاً في الجبر بصورة لا يحتمل الشك ولا التأويل فقد سئل في عصره عن ثلاث مسائل (احداها) كيف صدر ملازيم التضاد والشر عن الواجب مع البت بانه عز وجل يتعالى عن ان يكون مصدر شر او ظلم وجور ومع القول بامتناع تعدد الواجب . (الثانية) اي الفريقين اقرب الى الصواب وقوله اشبه بالتحقيق : الجبرية القائلون بالجبر ونفي الاختيار عن الممكن ام القدرية الناسبون الى العبد خلق افعاله . (الثالثة) ان قوماً يقولون بان البقاء من صفات المعاني اي انه صفة زائدة على ذات الباقي في الخارج فكيف يصح قولهم وما سبيل المناقشة معهم .

فاجاب عمر الخيام بكلام طويل حلل فيه هذه الابحاث تحليلاً دقيقاً وكان جوابه على السؤال الثالث صريحاً في الجبر فقد قال — واما سؤاله عن اي الفريقين اقرب الى الصواب فلعل الجبري اقرب الى الحق في بادئ الرأي وظاهر النظر من غير ان يتلجلج في هذيانه ويتغلغل في خرافاته فانه حينئذ يبعد عن الحق جداً ومما يؤيد ذلك قوله في احدى رباعياته .

آورد باضطرارم اول بوجود جز حيرتم از جهان جيزي نفزود

رفتيم باكراه ونداتيم جه بود زين آمدن وماندن ورفتن مقصود

جاء بي مضطراً الى الوجود ولم ازدد غير الحيرة في هذه الحياة . ذهبنا مكرهين ولم نعلم المقصود من مجيئنا وبقائنا وذهابنا .

برر هكذرم هزار جاد ام نهي كويي كه بكيرمت اكركام نهي

يك ذره زحكم توجهان خالي نيست حكم تو كني وعاصيم نام نهي

تضع الاشراك يا آلهي في الف مكان من سبيلي وتقول انك اذا وطأتها فانا نهلكك لا تخلو ذرة في العالم من حكمك انت تحكم وتقدّر عليّ وانت تسميني بالعاصي .

« البعث بعد الموت »

كان قدماء المصريين يعتقدون بعودة الروح الى الجسد في الدنيا ، وكان فلاسفة اليونان الالهيون ولا سيما اتباع افلاطون يعتقدون بخلود الروح الا انهم ما كانوا يؤمنون ببعث الارواح كما نصت عليه الشرائع المنزلة وكانوا ينكرون حشر الاجساد التي لا تلبث

ان يتطرق اليها البلى بعد دفنها ، وزعموا ان الروح تنتقل بعد خروجها من الجسد الى عالم ملكوتي قدسي عقلي وهناك تحيى حياة إما شقية واما سعيدة لقاء ما أتته في الحياة من آثام أو اعمال مبرورة . اما ارباب الديانات فرأيهم صريح في البعث والمسلمون يعتقدون بخلود الارواح وحشر الاجساد ومن ينكر البعث بعد الموت يكفر وعقابه القتل ، والقرآن طافح بالآيات التي يستدل بها المسلمون على البعث وللمفسرين من علماء المسلمين اقوال كثيرة وآراء عجيبة في هذا البحث .

وقد انعمنا النظر في رباعيات عمر الخيام فوجدناه تارةً منكراً للبعث انكاراً صريحاً مسفهاً رأي الزاعمين حشر الاجساد ومستهزئاً بأقوالهم وطوراً معترفاً به مما يصعب على الباحث ان يصدر حكماً قطعياً ورأياً نهائياً بالسلب او الايجاب وقد لمس خيام هذا الموضوع استطراداً وذلك اثناء بحثه عن الخمرة وحثه الناس على شربها فمن قوله :

زآن بيش كه غمهات شبيخون آرند فرماي كه تاباده ٔ كلكون آرند

توزرنه ٔ اي غافل نادان كه ترا درخاك نهند و باز بيرون آرند

صاحِ قبل ان تهجم عليك غمومك على غرة مر ليأتوك بالخمرة اللازوردية . ايها الغافل الجاهل انت لست ذهباً حتى اذا واروك التراب اخرجوك مرة اخرى .

ما لعبتكا نيم وفلك لعبتباز ازروي حقيقتي نه ازروي مجاز

بازيجه كنان بديم بر نطع وجود رفتيم بصندوق عدم يك يك باز

نحن ألاعيب اطفال والفلك هو اللاعب بنا وذلك امر حقيقي غير مجازي لقد لعبنا مدة في ساحة الوجود ثم ذهبنا الى صندوق العدم واحداً اثر واحد .

فقوله (انت لست ذهباً حتى اذا واروك التراب اخرجوك مرة اخرى ، وقد ذهبنا الى صندوق العدم واحداً بعد واحد) دليل على انه لم يكن معتقداً بالحشر والنشر كما يعتقد به المسلمون غير اننا نراه في موضوع آخر يبرم ما نقضه .

از خالق كردكار وزرب رحيم نوميد نيم به جرم وعصيان عظيم

كرمست وخراب مرده باشم امروز فردا بخشد به استخوانهاي رميم

لست قانطاً من رحمة الله الرحيم لجرمي وعصياني العظيمين وان انا مت اليوم سكران فانه سيغفر (غداً) رميم عظامي .

وكلمة (غدا) هنا لا تفسر الا بيوم القيامة التي يكون بها البعث والحساب والعقاب والعذاب ·

وعمر الخيام بنقضه وابرامه يشبه اباالعلاء المعري فان الثاني اضطرب رأيه في البعث اضطراباً عظيماً فكان تارةً مؤمناً به وتارةً منكراً له فمن قوله الذي أثبت فيه البعث :

وانى لأرجو منه يوم تجاوز ... فيأمر بي ذات اليمين الى اليسرى

اذا راكب نالت به الشأو ناقة ... فما أينقي الا الظوالع والحسرى

وان أعف بعد الموت مما يريبني ... فاحظي الادنى ولايدي الخسرى

ومن قوله الذي انكر فيه البعث انكاراً صريحاً :

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهة ... وحق لسكان البسيطة ان يبكوا

تحطمنا الايام حتى كأننا ... زجاج ولكن لايعاد له سبك

وقوله :

اما الجسوم فللتراب مآلها ... وعييت بالارواح انى تسلك

على اني ارتأي ان كلا الحكيمين كان منكراً للبعث غير معتقد بحشر الاجسام وخلود الأرواح واما الابيات التي نظمها الشيخان في اثبات البعث فقد نظماها تقية وخوفاً من الناس وسخط الجمهور عليهما (والشك) ولاريب أثبت في الانسان من اليقين ولا سيما في قضية هي أقرب الى الخيال الشعري من الحقيقة اليه ·

وكان ابوالعلاء المعري يرى التقية ومداراة الناس و يحتاط في اظهار آرائه ويعول على المجاز كثيراً اذ كان يخشى الاذى والاضطهاد ، وفي لزومياته شعر كثير نستدل به على ذلك فمن قوله :

اصدق الى ان ترى في الصدق مهلكة ... وبعد ذلك فاكذب قاعداً وقم

وقوله :

فاصمت فان كلام المرء يهلكه ... وان نطقت فإفصاح وايجاز

وقوله :

اهوى الحياة وحسبي من معايبها ... اني أعيش بتمويه وتدليس

اكتم حديثك لا يشعر به احد ... من رهط جبريل اومن رهط ابليس

فهذه الابيات تدل على ان ابا العلاء كان سيئ الظن بالناس كثير الحذر منهم وقد اتخذ (التقية) جنة له ٠

وقد حذا عمر الخيام حذو ابي العلاء المعري وسلك طريقه في دفع الاذى والضرر عن نفسه فقد ذكر « الوزير جمال الدين ابي الحسين علي بن القاضي الأشرف يوسف القفطي » مانصه : « ولما قدح اهل زمانه في دينه وأظهروا ماأسرّه من مكنونه خشي على دمه وأمسك من عنان لسانه وقلمه وحج متاقاة لاتقية وابدى أسراراً من السرار غير نقية » ٠
ومما يؤيد قول القفطي الصراحة البارزة في بعض رباعياته التي يصح الاستدلال بها على حذره وتكتمه وعدم افشاء مايكننه ضميره خوف البُله من صغار العقول وضعفاء الحلوم ٠

باهر بد ونيك راز نتوانم كفت   كوته سخنم دراز نتوانم كفت

حالي دارم كه شرح نتوانم داد   رازي دارم كه باز نتوانم كفت

لاأستطيع ان ابوح بسري لكل طيب وخبيث انا قصير الكلام لا أستطيع ان أطيله ٠ لي حال لا أستطيع ان أشرحها وسرّ لا أستطيع ان اقوله ٠
ولاسيما ان عصر الخيام كان عصراً طافحاً بجماعات من المتصوفة العمي الابصار والقلوب وزمر عظيمة من المتزهدين الناسكين الذين أعمى التعصب الممقوت أفئدتهم وأطفأ سراج عقولهم فكان من حقه ان يتكتم وان لا يبوح بآرائه اقتداء بزميله شيخ المعرة خشية هؤلاء الكذابين الذين كانوا يلعبون بعقول العوام كما يشاؤون ويقودونهم كما يرغبون ٠
وقد اتعظ الشيخان بالفجائع والرزايا التي أنزلت بزملائهم وأنسبائهم في الرأي من الاحرار الذين جبلوا على الصراحة وفطروا على البوح بما تجيش به صدورهم فذاقوا من اجل ذلك عذاباً اليما ٠

والنطع الذي أضجع عليه صالح بن عبد القدوس ، والسياط التي ألهبت جسد الحكيم الشهيد بشار بن برد الشاعر ، والجذع الذي صلب عليه الصوفي الشهير ابو منصور الحلاج ، والسيف الذي بتر عنق الفيلسوف السهروردي وغيرهم من الفطاحل الأفذاذ الى غير ذلك من الفجائع والوقائع الاليمة — كانت عبراً ودروساً ٠

« التناسخ »

التناسخ مذهب قديم عرف بين الهنود وشاع بين عرب الجاهلية فقد زعموا ان الانسان

اذا مات اوقتل اجتمع دم الدماغ وأجزاء بنيتـه وانتصب هامة فيرجع الى رأس القبر على رأس كل مائة سنة وقد دمغهم الرسول (ص) ورد زعمهم فقال (لا هامة ولا عدوى ولا صفر) ثم كثر علم العرب بهذا المذهب في صدر الاسلام وذلك منذ أواخر القرن الاول وكانت بعض الفرق من غلاة الشيعة تدين به كأصحاب عبدالله بن سبأ[1] الذي قال لعلي عليـه السلام (أنت أنت) اى أنت الاله فنفاه الى المدائن فادعى بتناسخ الجزء الالهي في الأئمة بعد علي . ومثل هؤلاء أصحاب ابي كامل[2] الذي كان يدعي ان الامامة نور يتنـاسخ منتقلا من شخص الى شخص وذلك النور يكون في شخص نبوة وفي شخص يكون امامة وربما تناسخت الامامة فصارت نبوة وقال بتنـاسخ الأرواح وقت الموت . والغلاة على أصنافهم متفقون على التناسخ والحلول ولقد كان التناسخ مقالة لفرقة في كل أمة تلقوها من المجوس والمزدكية والهند البرهمية ومن الفلاسفة والصـابئة ومذهبهم ان الله تعالى قائم بكل مكان ناطق بكل لسان ظاهر بشخص من أشخاص البشر وذلك هو معنى الحلول وقد يكون الحلول بجزء كإشراق الشمس في كوة او كإشراقهـا على البلور واما الحلول بالكل فهو كظهور ملك بشخص او كشيطان بحيوان ومراتب التناسخ اربع النسخ والمسخ والفسخ و لرسخ .

وقد اتخذ بعض الدعاة هذا المذهب وسيلة لنشر الدعاية لآل البيت ومن اولئك الشـاعر السيد الحميري الذي أعماه التعصب فأخرجه عن طريق الصواب وليس بين المطلعين على الآداب العربية من ينكر ما كان من ترهات الحميري وسخافاته .

وقد عثر المستشرق (Zokovski) زوقوفسكي في تاريخ الالفي على حكاية استدل بها بعض الباحثين على رسوخ عقيدة التناسخ في نفس عمر الخيام فقد ذكروا انه كان أستاذاً في مدرسة (نيسابور) وكانت المدرسة في حاجة الى ترميم واصلاح فكان سرب من الحمير يحمل الآجر الى المدرسة وبينا كان عمر الخيام يتمشى مع جماعة من التلاميذ شـاهد حماراً وقف عند باب المدرسة ولم يشأ الدخول اليها فجاء عمر الخيام واقترب من الحمار وقرأ في أذنه هذه الرباعية :

---

(١) وتسمى هذه الفرقة السبئية . (٢) وتسمى هذه الفرقة الكاملية راجع ١٣٢ و١٣٣ من كتاب الملل والنحل .

ای رفته و باز آمده بل هم گشته نامت زمیان نامها گم گشته
ناخن همه جمع آمده وسم گشته ریش از پس کون در آمده دم گشته

اي . يا أيها الذي ذهب وعاد مرة أخرى وصار (كالانعام بل هم أضل سبيلا) قد ضاع اسمك بين الاسماء لقد اجتمعت أظافيرك وصارت ظلفاً وظهرت لحيتك في عجزك فصارت ذيلاً .

فدخل الحمار المدرسة فسأله تلاميذه عن سر ذلك فأجابهم ان الروح التي حلت في جسد هذا الحمار كانت روح تلميذ عاش وتعلم فيها لذلك لم يرغب الحمار في الدخول اليها غير انه لما شاهد رفقاءه الاقدمين رضي بالدخول .

والذي يمعن النظر في هذه الحكاية المضحكة لا يتردد طويلاً ان يعتقد بانها من القصص الملفقة المصطنعة وانها من نوع الأحاديث التي يختلقها العوام لان هذا الرجل الذي دلت حياته وآراؤه الفلسفية ومؤلفاته الجليلة ومكانته العالية بين ملوك عصره — على رجاحة عقله وسعة علمه لا يمكن ان يسف هذا الاسفاف وان يتفوه بهذا الرأي المبتذل المأفون . هذا من جهة ومن جهة أخرى ان رباعياته التي اشتهر بها والتي أودعها آراءه الفلسفية تكاد تسوق الباحث الى الاعتقاد بالحاده ونكرانه البعث والحشر والنشر ويقينه بالعدم المحض لذلك يغلب على الظن براءة هذا الحكيم الكامل من هذه العقيدة .

وقد كان ابو العلاء المعري ممن ذم هذا الرأي وهزئ به وشنعه في رسالة الغفران وفي لزومياته فقال :

يقولون ان الجسم ينقل روحه الى غيره حتى يهذبه النقل
فلا تقبلن مايخبرونك ضلة اذا لم يؤيد ما أتوك به العقل

« تشاؤمهما »

ان سيرة المعري والخيام وشعرهما وآراءهما في الكون تدل على انهما كانا (متشائمين) متألمين مافتئين للحياة لما فيها من شرور وآثام معتقدين ان كل مافيها خطب وبلاء فالوجود خطب والحياة خطب والموت خطب والناس أشرار ذوو غدر وخبث وطباع فاسدة وان كل شيء في الكون خبيث ردئ وان جملة الشرور فيه تفوق جملة الخيرات وان آلام الحياة وبؤسها وشقاءها اكثر من مسراتها وأفراحها .

والتشاؤم (مرض روحي) ابتلي به كثير من الفلاسفة والمفكرين من ذوي الامزجة العصبية وهو مذهب قديم نشأ في ديانة البوذيين وشاع في الشرق ودان به كثير من الحكماء فكان خالق آلامهم وعلة اوجاعهم وهذا المرض العضال يتغلغل غالباً في نفوس سكان البلاد الحارة الموبوءة بالامراض القليلة الأرزاق الفقيرة التي مافيها عمل ولا كسب وكثيراً مايحصل من الوراثة هذا عند عوام الناس وهو وقتي لايلبث ان ينقلب الى تفاؤل وفرح وسرور ان تحسنت الحالة فهو اذاً عند عامة الجمهور ضرب من الشكوى الوقتية المتولدة من (الحاجة) ومتى زالت الحاجة زال التشاؤم سريعاً ٠

اما عند الحكماء المفكرين فأمره عظيم وشأنه كبير فانه يتولد في نفوسهم من سلسلة التفكرات العميقة والتأملات الطويلة في شؤون غامضة وامور مبهمة لم يتوصل العقل البشري الى حل معضلاتها كالوجود والواجب وسر الوجود والخليقة وعلتها ووضعها ونواميسها والكون ومنشئه وهل هوحادث اوقديم وهل هومحدود ومتناه اوهو غير محدود وغير متناه والأزلية والسببية والمبدأ والمنتهى والمعاد والروح والخلود الى غير ذلك من الأسرار والألغاز التي ماتأمل فيها احد الارجعت تأملاته على أعقابها وتسرب اليه الريب ومال الى الشك قسراً لااختياراً والشك الذي هو نتيجة عدم ادراك هذه المعميات هو الذي يولد (التشاؤم) و يورث الألم واليأس ٠ وفي الحقيقة اذا فكر الانسان في علة وجود هذا الكون وفي سبب هذه الخليقة والايجاد والبقاء والانتقال الى جهة لاتعرف غايتها وعاقبتها وفي موته الذي يتخلى به عن رجائه وامله وامانيه يشعر ولاريب بهزات عنيفة في وجدانه وصدمات قوية في شعوره واحساسه واستيلاء يأس مظلم مخيف وخيالات مريعة واحلام محزنة والانسان مفطور على حب البقاء في الحياة على ما فيها من وجع وكدر وآفة البقاء العدم وفكرة العدم والفناء والاضمحلال هي التي تورث التشاؤم الذي لامندوحة عنه ما دام موقناً بها ٠

وقد أعدت الراحة الكبرى لمن كان معتقداً بكون له ابتداء وانتهاء أوجده خالق قدير من العدم وسيورده العدم كما أوجده وان هناك حشراً ونشراً وحساباً وعقاباً وان هناك جنة عرضها السموات والارض فيها حور عين وأباريق وكأس من معين وفاكهة ولحم

طير مما يشتهون أعدت للمؤمنين الصالحين وان هناك ناراً ملتهبة فيها ألوان من العذاب أعدت للمجرمين الآثمين .

فهذا الأمل الرائع يمنح المعتقدين راحةً وسلاماً وأماناً في الحياة فطوبى للمعتقد المؤمن وويل للشاك المرتاب .

وان ابا العلاء المعري الذي تدل كلماته وأقواله على انه كان عنادياً بحتاً مرتاباً في وجود خالق صانع مدبر ، حائراً في سبب الخليقة والايجاد والفناء ، شاكاً في العقائد التي من ضمنها الحشر والمعاد والخلود — يجب ان يكون بطبيعة الحال (متشائماً) وهذا هو الواقع وانك لتجد عند قراءة (لزومياته) صيحاته الأليمة وصرخاته الحزينة وكأنك تكاد تلمس يأسه وقنوطه في شعره من أسئلته الدالة على تحيره الكثير وارتيابه العظيم .

وهذه الآراء التي ضاق بها صدر هذا الحكيم والمصائب والنكبات التي ألمت به بفقدان بصره وموت أبيه وأمه وفقره ووهنه هي التي أشعلت في قلب الشيخ جذوة اليأس والألم فراح يكيل للأديان السباب وللأنبياء الشتم وللناس القذع ، ماقتاً الحياة وسكانها مرسلاً خراطيم من نار غضبه على طبائعهم وسجاياهم ، معتزلاً عن الناس ، منزوياً قابعاً في كسر داره تتقاذفه أمواج الشكوك حتى صيرته حليف الضنى واليأس والبؤس وهل هناك برهان أقوى على مقته الحياة من ايصائه ان يكتب على قبره :

هذا جناه ابي علي وما جنيت على احد

وقوله :

ارانى في الثلاثة من سجوني فلا تسأل عن الخبر النبيث
لفقدي ناظري ولزوم بيتي وكون النفس في الجسد الخبيث

* * *

تعب كلها الحياة فما أعجب الا من راغب في ازدياد

وقوله وهو دليل على مقته الناس :

مسخ المعاشر فالغضنفر ثعلب في لؤمه والناس كالنسناس
وتفكرت نفس اللبيب وقدرأت أشخوص جن أم شخوص أناس

عرب وعجم دائلون وكلنا في الظلم اهل تشابه وجناس

* * *

والشر طبع قد بثت غريزته مقسومة بين أنواع وأجناس

* * *

سجايا كلها غدر وخبث توارثها أناس عن أناس

وقد تزاحمت هذه الافكار في دماغ عمر الخيام كما تزاحمت في دماغ صاحبه المعري وكان الشؤم واليأس ملازمين لروحه مسيطرين على احساسه وشعوره حتى بلغ من كراهته للحياة وتشاؤمه منها انه تمنى انه لو لم يكن مخلوقاً في الدنيا .

گر آمدنم بمن بدی نامدمی ورنیز شدن بمن بدی کی شدمی

به زآن بندی که اندرین عالم خاك نه آمدی نه شدمی نه بدمی

لو كان مجيئي باختياري لما جئت ولو كانت خلقتي بيدي لما رغبت ان أخلق . الافضل أنني لم اكن في هذا العالم ولم اجئ اليه ولم أخلق ولم أبق فيه .

لقد علمنا مما تقدم ذكره أن كلا الحكيمين اتفقا على ان الحياة خطب وبلاء فقد اتحدا واتفقا على تشخيص الداء الا انهما اختلفا في الدواء .

« الخمرة — المنية »

كان عمر الخيام يري ان الوسيلة الوحيدة الى النجاة من آلام الحياة السالفة . وكان المعري يرى ان المنية هي الوسيلة الى ذلك وقد وصف الخيام الخمر بما وصف به ابو العلاء الموت . وفي طاقتنا ان ندعي ان نفس المعاني التي ذكرها المعري في الموت جعلها الخيام في الخمر فقد ذهب في المغالاة بمدحها والاسراف في حبها والولوع بها وحث الناس على شربها ما جعل بعض الباحثين ان يسيئوا به الظنون ويعتبروا أقواله ضرباً من الجنون ونزعة من السفه وقد ذهب الخيام في الخمرة مذهب اكثر الشعراء والحكماء الذين كانوا يرون ان فيها راحة للنفوس وتسكيناً للأوجاع وتخفيفاً للآلام والاكدار ومما ينسب الى الحكيم الفارابي في هذا المعنى قوله :

بزجاجتين قطعت عمري وعليهما عولت أمري

فزجاجة ملئت بحبر وزجاجة ملئت بخمر

فبذي أدوّن حكمتي وبذي ازيل هموم صدري

وتدل رباعياته على انه لم يشرب لمجرد اللهو والعبث. وانما اتخذها دواء كما يتخذ المريض الدواء لمرضه وانه كان يرى ان السلافة هي الوسيلة الوحيدة الى تبديد الهموم وتفريج الكروب عن الصدور فمن ذلك قوله :

مى خوردن من نه از براى طرب است نى بهر فساد وترك دين وادب است
خواهم كه ببيخودى بر آرم نفسى مى خوردن ومست بودنم زين سبب است

ليس شرب الخمرة من اجل الطرب والفساد وترك الدين والأدب . انما أريد ان اتنفس الصعداء وانا ذاهل عن نفسي فشربي الخمرة وسكري لهذا السبب .

از آمدن بهار واز رفتن دى اوراق وجود ماهمى كرد دطى
مى خور مخور اندوه كه كفتست حكيم غمهاى جهان جوز هر و ترياكش مى

بين مجيء الربيع وذهابه تنطوي اوراق وجودنا . أشرب الخمرة ولا تتألم فقد قال الحكيم ان آلام الحياة سم ودرياقها الخمر .

وقد ظن بعض الباحثين ان السلافة التي يتغنى بها الخيام في رباعياته هي (سلافة الحب) او (خمرة الحقيقة) او (السكر المقدس) وهي الخمرة الخيالية التي ينشدها شعراء الصوفية في قصائدهم مثل ابن الفارض وجلال الدين الرومي وغيرهم وفي الحقيقة ان هذا الظن باطل غير صحيح فان عمر الخيام لم يتغزل بخمرة وهمية وانما تغزل بالمشعشعة الحمراء بنت الكروم لابادة الألم الرابض في صدره والرباعيتان اللتان تقدم ذكرهما كافيتان في دحض هذا الزعم .

وقد وصف الخيام المدامة باوصاف دقيقة بديعة تدل على انه كان ممن دارس الخمرة ومارس شربها دهراً طويلاً فهو في وصفه الرائع أشبه بابي نؤاس في وصفه لها حتى لقد سن للسكارى قانوناً في كيفية تعاطيها قال :

كر باده خورى تو باخرد مندان خور يا باصنمى لاله رخى خندان خور
بسيار مخور ورد مكن فاش مساز اندك خور وكه كاه خور وپنهان خور

اذا شئت شرب الخمرة فاشربها مع العقلاء او مع مليح ضحوك ذي محيا منير ولا تشرب كثيراً ولا تفحش في الكلام اشرب قليلاً وبين آونة وأخرى وفي الخفاء .

اما شيخ المعرة فقد خالف صاحبه في هذا المعنى وأكثر من ذم الخمرة وقبحها وندد بشاربيها وزعم انها سالبة العقول هاتكة الوقار مفرقة الاحباب وقد أجهز على السلافة في لزومياته فمن ذلك قوله :

وحاذر من الصهباء فهي عدوة من الصهب مشت في مفاصلك السكرا

* * *

البابلية باب كل بلية فتوقين هجوم ذاك الباب
جرّت ملاحاة الصديق وهجره واذى النديم وفرقة الاحباب
ام الحباب وان أميت لهيبها بمزاجها وافت كأم حباب
هتكت حجاب المحصنات وجشمت مهن العبيد تهضم الارباب
ونوهم الشيب المدالف انهم لبسوا على كبر برود شباب
واذا تأملت الحوادث ألفيت صهب الدنان اعادي الالباب

* * *

دبيب نمال من عقار نخالها بجسمك شر من دبيب العقارب
ولو انها كالماء طلق لأوجبت قلاها اصيلات النهى والتجارب

* * *

تجرع موت لا تجرع لذة من الخمر في كاساتهم والاباريق

قلنا غير مرة ان الخيام والمعري كانا يريان الحياة خطباً وشراً يجب التخلص منها اما الخيام فقد رأى ان احسن وسيلة تنجيه منها هي (الخمرة) واما المعري فقد ذمها وكان يرى ان الموت هو الدواء الشافي وكان يتطلب الفرج على يد المنية وقد تمناها في كثير من شعره فمن قوله :

اما حياتي فمالي عندها فرج فليت شعري عن موتي اذا قدما
صحبت عيشاً أعانيه ويغلبني مثل الوليد يقود المصعب السدما
وقد ملات زماناً شمره لهب اذا دنا الخبوّ عاد فاحتدما
من باعني بحياتي ميتة سرحا بايعته واهان الله من ندما

* * *

رب متى ارحل عن هذه الـ دنيـا فاني قد أطلت المقام
لم ادر ما نجمي ولكنه في النحس مذ كان جرى واستقام
فلا صديقي يترجى يدي ولا عدوي يتخشى انتقام
والعيش سقم للفتى منصب والموت يأتي بشفاء السقام
والترب مثواي ومثواهم وما رأينا احداً منه قام

* * *

مللت عيشي فعوجي يا منية بي وذقت فنين من بؤس ومن رغد
غدي سيوجد امسي لا ينازعني في ذاك خلق وامسي لا يصير غدي

« مصير الجسم بعد الموت »

وقد اختلف الحكيمان ايضاً في قضية مصير الجسم بعد موته فكان ابو العلاء تارة يحفل بجسم الانسان بعد موته وتارة لا يرغب في تكريمه ولا يهتم بما يفعل به لانه لا يحس ولا يتألم فمن قوله في تكريم الجسم :

خفف الوطأ ما أظن اديم الـ أرض الا من هذه الاجساد
سر ان اسطعت في الهواء رويداً لا اختيالاً على رفات العباد

ومن قوله في عدم تكريمه :

تكرم اوصال الفتى بعد موته وهن اذا طال الزمان هباء

وقد غالى المعري في عدم الاعتناء بالجسد حتى استحسن من عادات الهنود حرق أمواتهم .

فاعجب لتحريق اهل الهند ميتهم وذاك اروح من طول التباريح
ان احرقوه فما يخشون من ضبع تسري اليه ولا خفي وتطريح
والنار اطيب من كافور ميتنا غباً واذهب للنكراء والريح

وقد خالف الخيام شيخ المعرة في هذا المعنى فكان مبالغاً في تكريم الجسد موصياً الخزاف بالرفق عند جبله الطين قائلاً انها أجسام بشرية يجب ان تعامل بالحسنى .

اى كوزه كران بكوش اكرهشيارى تاجند كنى بركل آدم خوارى
انكشت فريدون وكف كيخسرو برجرخ نهادهٔ جه مى بندارى

ايها الخزافون اسمعوني ان كنتم منتبهين : حتى م تظلمون طينـة ابن آدم . انكم قد وضعتم اصبع فريدون وكف كيخسرو على الدولاب فماذا تظنون ؟

دي كوزه كري بديدم اندر بازار بر باره كلى لكد همى زد بسيار
وآن كل بربان حال باوي ميكفت من همجو توبوده ام مرانيكو دار

رأيت امس خزافاً في السوق وكان يركل قطعة من الطين وكان لسان حالها يقول للخزاف لقد كنت ياهذا مثلك فعاملني بالحسنى .

وقد عاش الشيخان عزبين ولم يتزوجا وكان رأي المعري في المرأة سيئاً وكان يكره النسل ويرى الزواج إثماً وجرماً عظيمين فلم يشأ ان يجني على غيره كما جنى عليه ابوه وفي ذلك يقول :

وارحت اولادي فهم في نعمة الـ عدم التي فضلت نعيم العاجل
ولو انهم ظهروا لعانوا شدة ترمي بهم في موبقات الآجل

* * *

فالبث وحيداً لا وصيـ فة في ذراك ولا وصيف

ومع ان الخيام عاش بلا ريب اعزب فلم نطلع على رأيه في الزواج والمرأة والنسل .

لقد علمتم ايها السادة مما تقدم ذكره ان عمر الخيام لم يأتنا بشيء جديد وانما كرر ما تكلم به قبله شيخ المعرة وترنم بعين النغمة التي كان يترنم بهـا حكيمنا الجليل . فسلام على الجزيرة وسلام على ربوع الشآم منبت الفحول العظام .

احمد حامد الصراف
العراقي

رسالة الكرم

— ٣ —

« اول ماينبت من الحب والغرس »

اول ما ينبت من الحُبّة نسميه الحمْنَة مالم نغرسه بايدينا فننزعه ثم نغرسه · فاذا غرسناه سميناه غرساً · هكذا جاء في الكتاب المنسوب للاصمعي ولم أر من ذكر الحمنة بهذا المعنى · والذي في اللسان والتاج ان الحمنة واحدة الحمْن وهو صغار القردان ولا معنى له هنا ولعلها محرفة عن الحَبّة · ويؤيد هذا ما جاء في المخصص فقد قال فيه : قال بعض الطائفيين اول ما ينبت من الحُبّة يسمى الحَبّة ما لم ننزعه فنغرسه بايدينا فاذا نزعناه ثم غرسناه سميناه غرساً وسيأتي عن التاج ان الحبة كثبة العنب اول ماينبت من الحب مالم يغرس جمعه حبى كهدي ·

وقال في المخصص ايضاً اذا نبتت حبة العنب وهي العجمة والحصرمة والفرصد وهي طائفية · والنواة فهي حَبّة ما لم ينزع نباتها من موضعه فيغرس فاذا نزع ثم غرس سمي غُرْسة (هكذا ضبط بالشكل بضم الغين ولم ارها لغيره) وسيأتي تحقيق اسمها في الغراس · الاصمعي عن ابي الخطاب · العنب اول ما يغرس يكون غَرْسة ثم تصرم في قمر قابل اي يقطع من غصونها ما يبس منها اجمع حتى يبقى منها اصلها ثم تخرج لها شكر فاذا علقت الغريسة قطعت من وجه الارض وترك اصلها وعروقها في الارض فاذا قطع رأسها دُمّنَت بالدّمْن اي ألقي على اصلها الدمن وهو السرجين ·

فاذا نبت اصلها الذي في الارض ثانية فهي نشأة · وقد أنشأت اذا نبتت · وفي القاموس النشيئة والنشأة مانهض من كل نبات ولكنه لم يغلظ بعد ونحوه في اللسان · و يأتي نشأ بمعنى حيي ، وارتفع ، وربا ، وشب ، وبدا ·

و يقال سرى عرق الشجرة في الارض يسري سرياً ، دب تحت الارض ·

وقد تقدم ان عروق كل شيء أطناب تتشعب منه واحدها عِرْق والعِرقاة بالكسر جمع عِرْق وعِرْقة وقال الليث العِرقاة من الشجر أرومة الأوسط ومنه تتشعب العروق ·

و يقال أنسغ الشجر والكرم اذا نبت بعدما قطع ·

الغرس — عقافيل الكرم ماغرس منه · ولم يذكر لها واحد · قال الشاعر :

نجذ رقاب الاوس من كل جانب   كجذ عقافيل الكروم خبيرها

الفَسْل — قضبان الكرم للغرس وهو ما أخذ من أمهاته ثم غرس والافتسال قطع غِصَنة الكرم للغرس · واسم الغصن الفسل ·

العَكيس — القضيب من الحبلة يعكس تحت الارض الى موضع آخر · (الاصمعي) المكيسة التي تمس الارض في قضبانها وهي أغلظ من الشكر ·

الشكير كقضيب الكرم يغرس من قضيبه جمعه شُكُر كقُضُب والفعل منه شكِر كفرح وأشكر واشتكر ·

وشُكُر الكرم (قضبانه الطوال) وقيل قضبانه الأعالي ·

وفي المخصص فان غرس الكرم من قضيبه فاسم القضيب الشكير وجمعه شكر وهو ايضاً زرجونة ثم قال والحبلة كالشكير·

والشكير ماينبت من القضبان الغضة الرخصة بين القضبان العاسية · وما ينبت حول الشجرة من اصلها · او ماينبت في اصلها من الورق ليس بالكبار والشكير ماينبت في اصول الشجر الكبار · والورق الصغار ينبت بعد الكبار وقيل الشكير الشجر الذي ينبت حول الشجر ·

الغريسة شجر العنب اول مايغرس ، والنواة التي تزرع ، والغرس بالفتح الشجر الذي يغرس والجمع أغراس وغراس والغَرْس القضيب الذي ينزع من الحبة ثم يغرس · والغِراس بالكسر زمن الغرس ووقته ومايغرس من الشجر والمغرِس موضع الغرس وجمعه مغارس وغرس الشجر من باب ضرب وأغرسه ايضاً بمعنى أثبته في الارض فالشجر مغروس وغراس وغَرْس كما تقدم ولم نجد غرسة بضم الغين او بفتحها في اللسان والتاج والمصباح ولعل الاولى تحريف والثانية واحدة الغرس فتأمل ·

ويقال نبَّت الزرع والشجر تنبيتاً اذا غرسه ، والنابت من كل شيء الطري حين ينبت صغيراً · ويقال استأصلت الشجرة نبتت وثبت أصلها ·

* * *

« التطعيم »

أطعم الغصن إطعاماً وطعمه تطعيماً اذا وصل به غصناً من غير شجره فطَعِم الغصن اي قبل الوصل ·

الغروز بالضم : الاغصان تغرز في قضبان الكرم للوصل واحدها غرز بالفتح والتغاريز ماحول من فسيل النخل وغيره الواحد تغريز سمي بذلك لانه يحول من موضع الى موضع فيغرز وهو التغريز ·

وغرز عوداً في الارض وركزه بمعني واحد ، وكل ما سُمِّر في شيء فقد غُرِز وغُرِّز

« ماء الكرم »

أغطى الكرم اذا جرى فيه الماء وزاد ونما ·

التوحيم : ان ينطُف[1] الماء من عود النوامي اذا كسر يقال وَحَّمَت الكرمة تُوَحِّم · الدماع كرمان وغراب ما يسيل من الكرم في ايام الربيع · كذا في اللسان والمخصص واقتصر الصاغاني على الاول قال في التاج وفي نسخ الصحاح والاساس بالتخفيف ·

النسغ بالضم ماء يخرج من الشجرة اذا قطعت ·

وقد تقدم ذكر الطل وهو الندى الذي تخرجه عروق الشجر الى غصونها ·

« الأبن والزمع وما شا كلهما »

واذا جرى الماء بعد الحطاب قيل أفطَرَت شكره ثم يقال ازغبت ·

ويقال ازغب الكرم وازغاب كاحمر واحمار اذا صار في أبن (عقد) الاغصان التي تخرج منها العناقيد مثل الزَغب[2] وذلك اذا جري فيه الماء وبدأ يورق ·

الأَبن جمع أبنة بالضم وهي العقدة في العود او العصا ويقال لها عين وجمعها عيون وقد تقدم ان قطعات الشجر أبنها التي تخرج منها اذا قطعت الواحدة قطعة ·

الزمع محركة أبن تكون في مخارج عناقيد الكرم · وقيل الزمعة الحبة اذا كانت مثل رأس الذرة واحدتها زمعة بالتحريك وتجمع على زمعات ، ويقال ازمعت الحبلة اذا عظمت

---

(١) نطَف الماء ينطِف وينطُف قطر قليلاً قليلاً ·

(٢) الزغب اول ما يبدو من شعر الصبي والمهر وريش الفرخ ·

زممتها ودنا خروج الحبنة منها . وفي اللسان الزمعة الطلعة في نواحي الكرم بعدما يصوف[1] . وقيل العقدة في مخرج العنقود . وفي الاصمعي اذا رأيت فيه الطلع قلت أزمع وفيه ايضاً العنب اول شيء يخرج منه ان تعظم الزمعة فاذا عظمت جداً سميناها بنيقة ثم يكون حثراً ثم يكون غصناً[2] وذلك اول مايعقد فلا يزال غصناً حتى يأخذ في النضج و يرى فيه السواد .

فاذا عظمت الزمعة سميت بنيقة كسفينة .

ويقال اكمحت البنيقة[3] اذا ابياضت وخرج عليها مثل القطن .

وفي المخصص والبنائق . هي الكوافير اي الاغطية .

و يقال اكمح الكرم بالحاء المهملة اكاحاً اذا تحرك للايراق . واكمخ بالخاء المعجمة

---

(١) هكذا ضبط في اللسان في مادة زمع وقد ذكر في مادة : صوف ، صوّف الكرم بتشديد الواو وهو الموافق لما في التاج والاصمعي والمخصص .

(٢) هكذا في نسخة الاصمعي وكتب الشارح في ذيلها عند هذه اللفظة اي (غصناً) ومنه أغصن العنقود وغصّن اذا كبر حبه شيئاً . ومن البين ان قوله ثم يكون غصناً وذلك اول مايعقد الخ ينافي قولهم أغصن العنقود اذا كبر حبه شيئاً ففي العبارتين تباين بين . والظاهر ان في العبارة تحريفاً لم يفطن له الشارح وان اصلها هكذا : ثم يكون غضاً .

وقد وقع في عبارة اللسان في تفسير الغض خطآن : وذلك انه قال والغض الحبن من حين يعقد الى ان يسود و يبيض وقيل هو بعد ان يحدر الى ان ينضج الخ . ولا معنى للحبن ولا ليحدر في هذا المقام والصواب في الاول الحثر وفي الثاني يجدر كما تدل عليه عبارة المخصص فقد جاء فيه : اذا صار حب العنب فوق النفض قيل جدر ثم يكون غضاً . ثم قال والغض من صفات الحثر . ثم قال وقيل هو غض من حين يعقد الى ان يسود او يبيض . وقيل هو بعد ان يجدر الى ان ينضج وقد جاء عن الاصمعي مايؤيد ذلك فيما نقله عن ابن الخطاب : ثم يجدر اذا كان فوق ذلك . قال يخرج مثل الجدري ثم يكون غضاً ثم يرق حتى يلين و يطيب وسيأتي ذلك مفصلاً في مواضعه .

(٣) في اللسان الزمعة .

بدت زمماته وذلك حين يتحرك للايراق ·

وفي اللسان حثرة الكرم زمعته بعد الاكماخ وسيأتي الحثر في العنقود ·

« تقطينه »

ويقال قطن الكرم تقطيناً وعطب تعطيباً اذا بدت زمماته وظهرت · وفي المخصص اذا تحرك للايراق فبدت زمماته ظهر لها عطب فيقال قد عطب الكرم وقطن واكمخ وفي اللسان العُطُب والعُطْب القطن واحدته عطبة ·

« تحببه وتفتحه »

جدر الكرم كفرح اذا حبب وهم بالايراق · وفي اللسان جدر النبت يجدُر وجدُر جدارة وجدّر وأجدر طلعت رؤوسه في اول الربيع وذلك يكون عشراً اونصف شهر ·

الأصمعي صوّف الكرم بدت عيونه · وفي المخصص فاذا بدت عيون النوامي بعدما تصرم قلت صوّف · وفي اللسان والتاج: صوف الكرم بدت نواميه بعد الصرام يقال صرم النخل والشجر والزرع اي جزه · والصرام بالفتح ويكسر أوان ادراكه · والصرْم القطع البائن للحبل والعذق ونحو ذلك الصرام ·

ويقال بصّص الشجر اذا تفتح للايراق · وبصّصت البراعيم اذا تفتحت اكمّة الرياض وبصصت الارض ظهر منها اول ما يظهر من نبتها كبصبصت وأبصت وأوبصت ·

وجصّص العنب والشجر وهو اول مايرى منه شيء قدخرج مثل بصص مأخوذ من تجصيص الجرو اذا هم ان يفتح عينيه · وجصص العنقود هم بالخروج ·

الخَضْب مايظهر في الشجر من خضرة عندابتداء الايراق وجمعه خضوب وخضَب الشجر يخضب خضوبا · وخضِب وخُضِب واخضوضب كله بمعنى اخضر وخضبت الارض خضباً طلع نباتها واخضر ·

« للبحث صلة »

عضو المجمع العلمي

سليم الجندي

آراء وافكار

حول تصحيح الجزء السابع
« من كتاب نهاية الأرب »

— ٣ —

(١٥) — وجاء في ص ٢٠٥ س١٥ يصف العدو الذي استسلم : فأبصر بالخدمة موضع رشده اه . ذكر الاستاذ ان الصواب : « فأبصر بالحذق » بدل الخدمة وقال : (لان الحذق سبب ابصاره رشده اما الخدمة فانما تصح ارادتها على استكراه وتكلف) اه ونقول : ان الباء في قوله بالخدمة ليست بمعنى السببية كما فهم الاستاذ وبنى على ذلك انتقاده وانما هي بمعنى (في) الظرفية والمراد ان هذا العدو قد أبصر رشده في رجوعه الى الطاعة وملازمته للخدمة ويدلك على ذلك قول الكاتب قبل هذه العبارة (وكان الملك فلان ممن يريد طرق النجاة فلم يرَ اليها بسوى الطاعة سبيلاً ويأمل اسباب النجاح فلم يجد عليها غير صدق الانتماء دليلاً اه) . وإذن فلا موجب لتغيير لفظ الخدمة بالحذق مادام المعنى صحيحاً لا استكراه فيه ولا تكلف .

(١٦) — وجاء في ص٢١٤ س١٥ يصف الرسالة التي يقال ان سيدنا ابابكر ارسلها الى سيدنا علي « ومخبآت الصنادق » اعترض الاستاذ على قوله : «الصنادق» (بان صوابه الصناديق بالياء لمكان الواو في مفرده وهو صندوق) . ونقول : أجاز علماء الكوفة حذف الياء من مماثل مفاعيل كما أجازوا زيادة تلك الياء في مماثل مفاعل فتقول في جعافر جمع جعفر : جعافير كما تقول في عصافير جمع عصفور : عصافر ، ومن الاول قوله تعالى : (ولو ألقى معاذيره) والاصل معاذره بدون ياء جمع معذرة . ومن الثاني وهو حذف الياء قوله تعالى : (وعنده مفاتح الغيب) والاصل مفاتيح بالياء جمع مفتاح ، واذ كان ذلك مذهباً لبعض علماء الصرف مستشهدين على صحته بالتنزيل العزيز وهو حجة لاتجحد لم نشأ والحالة هذه ان نغير ماجاء في الاصل فنزيد ياء في قوله : «صنادق» لجواز ان يكون صاحب هذا الكلام جارياً على مذهب الكوفيين في ذلك .

(١٧) — وجاء في ص٢١٧ س٥ (والتعريض سجال الفتنة اه) . والسجال جمع سجل ، وهو الدلو العظيمة ، يريد بهذه العبارة ان التعريض بالكلام وهو التلميح به الى عيوب الخصوم يحمل الشر والفتنة في ثناياه كما تحمل الدلو الماء . وإذن فعبارة الاصل مستقيمة لاخطأ فيها ، وقد وردت هذه العبارة ايضاً في صبح الأعشى وقد قال الاستاذ ان الصواب (شجار) بدل (سجال) كما في نسخته المخطوطة لمحاضرة الأبرار ، وقال في تفسير الشجار انه من شجر الطبيب فم المريض اذا فتحه بواسطة عود ثم صب فيه الدواء والعود المذكور هو الشجار ، ومعنى كون التعريض شجار الفتنة ان التورية في الكلام والتلميح به الى عيوب الخصوم تثير الحفائظ وتهيج الأحقاد ويكون ذلك كالشجار يفتح به فم الفتنة) الخ كلام الاستاذ . ونقول : « ان المعنى متى استقام على الرواية الاولى فلا موجب لطرحها ووضع غيرها مكانها على ان القارئ المدقق اذا وازن بين الروايتين ونظر بذوقه ليعرف اي المعنيين أقرب الى الأذهان واي الكلمتين أشبه بالاساليب العربية في مثل هذا الغرض الذي نحن بصدده لتبين له واضحاً ان المعنى في الرواية الاولى أشد تبادراً الى الذهن وأقل تكلفاً في توجيهه من الرواية الثانية التي نقلها الاستاذ عن محاضرة الأبرار كما يظهر له ان التعبير بسجال اقرب الى الأساليب العربية في مثل هذا المعنى من التعبير بشجار وانك اذا راجعت كلام العرب وجدتهم اذا ذكروا الفتن والحروب شبهوهما بالاشياء المظروفة كالماء ونحوه وليس أدل على ذلك من قولهم : (الحرب بيننا سجال) قال في اللسان في تفسير هذه الكلمة مانصه : معناه (انـا نـدال عليه مرة ويدال علينا أخرى وذلك لان المستقيين بسجلين من البئر يكون لكل واحد منهما سجل اي دلو ملأى ماء) اه . فأنت ترى من هذا ان المساجلة في الحروب اصله من السجل وهو الدلو على التشبيه .

(١٨) — وجاء في ص٢١٨ س٧ من كلام ابي بكر رضي الله تعالى عنه الى علي قال : (ماهذا الذي تسوّل لك نفسك ...) الى ان قال : (ويسري فيه ظعنك) اه يريد بقوله : (ويسري فيه ظعنك) إظهار التعجب والدهشة من هذه الخطة التي اتبعها عليٌّ رضي الله تعالى عنه معه حين ابى عليه البيعة فقال : (ماهذا الذي يسري فيه ظعنك ، اي ماهذه السبيل المظلمة التي تسلكها ويسري فيها ركبك على غير هدى متبعاً بسلوكها

غير سبيل المؤمنين كأنه يقول : ان هذا خلاف ما نعرفه منك ، ونعهده فيك) . وقد ذكر الاستاذ « ان سيف نسخته المخطوطة لمحاضرة الأبرار : (ويستشري فيه ضغنك) ورأى تفضيل هـذه الرواية على الاولى » ونقول : انـا لم نتبين وجهاً لتفضيل احدى الروايتين على صاحبتها ونرى انهما مستويتان سيف ظهور المراد وتأدية الغرض والتشابهها مع ماقبلها من الكلام على انه ان كان هناك وجه للتفضيل فان الرواية الاولى أليق باخلاق ابي بكر وأنسب بآدابه دون الثانية لما فيها من شتم علي رضي الله تعالى عنه ونسبة الضغن والحقد الى صدره المأهول بالتقوى المعمور بآداب الكتاب والسنة .

(١٩) — وجاء في ص ٢١٨ س ١٠ من كلام ابي بكر ايضاً الى علي رضي الله عنهما (أومثلك ينقبض عليه الفضاء) الخ المعنى أو مثلك في ذكائه وفطنته يضيق عليه المتسع من الامور ، وتلتوي عليه سبل الرشد مع ظهورها ، وتخفى عليه طرق الهداية مع وضوحها واستبانتها . وقال الاستاذ : « لعل الأصوب ما في النسخة الأخرى اي نسخة محاضرة الأبرار : (يغَصُّ عليه الفضاء) مكان (ينقبض) اي يضيق عليه الفضاء » ونقول : ان الانقباض ايضاً يؤدي هذا المعنى فانه ضد الاتساع والانبساط وما دام المعنى واحداً سيف كلتا الروايتين فلا وجه لتفضيل احداهما على الأخرى .

(٢٠) — وجاء في ص ٢١٩ س ٩ في كلام ابي بكر ايضاً : « ولا نبلغ مراداً الى شيء الا بعد جرع العذاب معه » الخ . قال الاستاذ : (ان الصواب إسقاط احدى الكلمتين إما كلمة (مراداً) او كلمة (الى شيء) فتكون العبارة هكذا : ولا نبلغ الى شيء الا بعد الخ او (ولا نبلغ مراداً الا بعد) الخ كلام الاستاذ . ونقول : ان تخطيء الاستاذ لعبارة الاصل وتصويبه حذف احدى الكلمتين انما سرى اليه من انه فهم ان قوله : (الى شيء) متعلق (بنبلغ) وليس كما فهم ولكنه متعلق بقوله (مراداً) وفعل الارادة يتعدى بالى اذا ضمنته معنى الحاجة والاضطرار ومنه قول الشاعر :

اذا ما المرء كان ابوه عبسا   فحسبك مايريد الى الكلام

قال في لسان العرب بعد ذكر هذا البيت (انما عداه بالى لان فيه معنى الذي يحوجك او يجيئك الى الكلام) اه فقوله هنا مراداً الى شيء اي حاجة الى شيء .

(٢١) — وجاء سيف ص ٢٢٠ س ٢ من كلام ابي بكر ايضاً : (وانهض الخير لك)

المعنى يسّره لك ، وقربه منك ، وجعله في متناول يدك ، فاستعار الانهاض لهذا المعنى كما يستعار الانهاض في الحظ ايضاً فيقال : أنهض الله حظك ، اي أقاله من كبوته .
وقال الاستاذ : « لعل الأصوب ما في نسختنا المخطوطة اي نسخة محاضرة الابرار (وأرهص الخير) الخ يقال : أرهص الشيء اذا أثبته وأسسه » . ونقول : ان المعنى الذي بيناه للرواية الاولى ظاهر لاتكلف فيه فلانرى مايوجب طرحها ووضع الرواية الثانية مكانها ولسنا في حاجة الى ان نبين هنا ان اكثر الكلام العربي من نظم ونثر قد اختلفت فيه الروايات الى اكثر من ثنتين وشرّاح دواوين العرب تثبت جميع هذه الروايات ولاتثبت رواية مع اطراح الباقي مادام لكل رواية صحيحاً معنىً تسكن اليه النفس ويطمئن له القلب .

(٢٢) — وجاء في ص ٢٢١ س ٨ : (وخصه بمزية وأفرده بجلالة) الخ يريد : وأفرده بصفة من صفات الخير اي ان النبي صلى الله عليه وسلم لم يترك واحداً من أصحابه رضي الله تعالى عنهم الا أثنى عليه وذكره بصفة يحمدها . وقال الاستاذ : « لعل الاصوب (بحالة) مكان (حالة) واحتج لذلك بان الحال تشمل الحسن والقبيح من الصفات بخلاف (الجلالة) » . ونقول : ان سياق الكلام يعين ان المراد بالحالة احدى صفات الخير دون غيرها من الصفات فانه يقول قبل هذا : « اما تعلم انه لم يدع — اي النبي صلى الله عليه وسلم — أحداً من أصحابه وأقاربه وسجرائه الا أبانه بفضيلة ، وخصه بمزية » الخ . على ان قوله (بمزية) عام ايضاً لاتخصيص فيه اذ لفظ المزية كلفظ الحالة في اشتراكهما بين صفات الخير والشر فكان مقتضى احتجاج الاستاذ تغيير قوله (بمزية) ايضاً .

(٢٣) — وجاء في ص ٢٢٣ س ٥ من كلام ابي عبيدة بن الجراح (لحقني اي عمر — بوجه يبدي تهللا) الخ . ومعنى قوله : (يبدي تهللا) ان أمارات السرور والبشر بادية على محياه ظاهرة لا خفاء بها . واما قول الاستاذ : (ان قوله يبدي تهللا) ليس من جنس كلام العرب فذلك ما نتوقف في قبوله اذ لايمكننا الحكم به الا بعد الإحاطة بكلام العرب نظماً ونثراً على ان مثل ذلك التعبير شائع في الشعر قال الشاعر :

يبدون في رهج الوقائع بشرهم والشمس كالحة الإهاب قطوب

واما الرواية الثانية التي استصوبها الاستاذ وهي قوله : (يندي) بالنون مكان (يبدي)

فهي رواية جيدة ايضاً لاخلاف في ذلك وانما الخلاف في تخطيء الاستاذ للرواية الاولى وقد ظهر صوابها بما بينا ٠

(٢٤) — وجاء في ص ٢٢٥ س ١١ في كلام عمر بن الخطاب يريد به علياً رضي الله تعالى عنهما (حين لا راد لقولك الا من كان منك ، ولا تابع لك الا من كان طامعاً فيك ، يمص إهابك و يعرك اديمك) الخ ٠ يريد بقوله : (يمص إهابك) ان أتباعك من الطامعين فيك لا ينقطع طمعهم حتى اذا استنفدوا كل مالديك واستخلصوا كل ما في يدك ولم يبق الا إهابك اي جلدك امتصوه كما يمتص العلق الدماء رجاء ان يجدوا فيه مايسد مطمعهم ٠ وقد كنى عمر رضي الله تعالى عنه بهذه العبارة عن ان الطامع لا يترك في يد المطموع فيه حقيراً ولا جليلاً الا تبعته عينه وامتد اليه طمعه هذا الذي فهمناه من هذه العبارة عند تصحيحنا لها وإذن فلا موجب ان نستبدل قوله (يمص) بالصاد المهملة بقوله : (يمض) بالضاد المعجمة كما رآه الاستاذ ومضه من مضه الامر اي أحرقه وأوجعه بل اننا نرى ان في الرواية الاولى من المبالغة في وصف تكالب الطامعين وحرصهم ما لا يخفى على ذي بصر بكلام العرب ٠

« للبحث صلة »

مصححه

احمد الزين

مطبوعات حديثة

دمية القصر

« وعصرة اهل العصر »

لابي الحسن علي بن الحسن الباخرزي المتوفى سنة ٤٦٧ هـ ويليه ملتقطات من ديوانه . طبعه وصححه الشيخ محمد راغب الطباخ بحلب ص ٣١٦ والملتقط من شعره ص ٥٤ . الطبعة الاولى سنة ١٣٤٩ — ١٩٣٠

هذا ماذيل به الباخرزي على يتيمة الدهر للثعالبي ، ونسج في ذيله على منوال الاصل ، ذكر فيه تراجم من كانوا على الأغلب بعد عصر الثعالبي من شعراء البدو والحجاز والشام ودياربكر وآذربيجان والجزيرة والعراق وبلاد المغرب والري والجبال وجرجان واستراباذ ودهستان وقومس وخوارزم وماوراءالنهر وخراسان وقهستان وسجستان وغزنة وغيرهم . والتزم المؤلف التنويه بهم بالسجع وبعضه الجيد ، واكثره متكلف يعدُّ دون طبقة الثعالبي ، كما ان من ترجم لهم هم في ادبهم دون رجال اليتيمة ، والضعف بادٍ على منثورهم ومنظومهم ، وان كال المؤلف لهم ولنفسه ولابيه المديح كيلاً على عادة الفرس في مبالغاتهم .

والباخرزي نسبة الى باخرز (بفتح الباء الموحدة وبعد الألف خاء معجمة مفتوحة ثم راء ساكنة وبعدها زاي) ناحية من نواحي نيسابور . و باخرز بين نيسابور وهراة . وحقيقة ان هذا النمط من التراجم المختصرة لا يبقي في ذهن القارئ اقل صورة حقيقية عن المترجم له ولا عن عصره وشعره ونثره . وقليل من المؤلفين من وفقوا في هذه السبيل توفيق ابن بسام في الذخيرة والثعالبي في اليتيمة ولسان الدين في الإحاطة والفتح بن خاقان في القلائد . وقليل فيمن جمعوا التراجم وكتبوا الطبقات من دانوا الصولي في كتاب الأرزاق وياقوت في معجم الادباء وابن خلكان في الوفيات والصفدي في الوافي بالوفيات وابن سعد في طبقاته والجمحي في طبقات الشعراء والاصفهاني في الاغاني والجهشياري في كتاب الوزراء والكتاب والقفطي في اخبار الحكماء وابن ابي أصيبعة في طبقات الأطباء والصابي في تاريخ الوزراء .

و يخيل اليك وانت تقرأ دمية القصر انك في القرن العاشر او الحادي عشر كأنك تتلو ريحانة الخفاجي او سلافة ابن معصوم لا في القرن الخامس الذي كان على جانب من الأدب متين . وقد اعتمد الناشر على احياء هذا الكتاب على نسخة في المدرسة الاحمدية بحلب وعلى أخرى في المكتبة المارونية في حلب ايضاً والثالثة نسخت له من الموصل ولم يزد في التعليق على مارآه شيئاً في حين ترى الحاجة ماسة الى الشرح والتعليق وبقي في نفسه من تصحيح هذا السفر اشياء كما قال عن نفسه . وقد احسن باثبات مايرى بعضهم اليوم حذفه من المجون لان المقصد الانتفاع بما كتبه المؤلف غثاً كان او سميناً لا التعديل في أشياء يستنكرها بعضهم اليوم وكانت أمس مما لا شأن له .

م . ك

ديوان التحقيق
« والمحاكات الكبرى »

تأليف محمد عبد الله عنان بك طبع في دار الكتب المصرية بالقاهرة (١٣٤٨ — ١٩٣٠) بعناية لجنة التأليف والترجمة والنشر ص ٥٤٤

هذا كتاب كأكثر مانشره المؤلف حتى الآن جامع بين أفكار الغرب وماينتفع به هذا الشرق ، جوّد تأليفه على الأسلوب الحديث واخذه من اوثق المصادر الافرنجية وبعض المصادر العربية وقد قسمه قسمين الاول في تاريخ ديوان التحقيق (الانكيزيسيون) ولاسيما الاسباني وما آل اليه من جلاء العرب وتنصيرهم في الاندلس وعرض في القسم الثاني للمحاكات الكبري في التاريخ الغربي . وكلها تدل على ظلم الانسان للانسان ، وان دعوى الشفقة والمرحمة قلّ ان وجدت في الامم الحديثة والقديمة . فعسى ان يقع المطالع العربي في هذا المجلد على امور تفيده في قيام مجتمعه الحديث فلا يرتكب من الخطايا ماوقع فيه اخوه الانسان في سالف الازمان ، وعسى ان تصح عزيمة المؤلف البحاثة على وضع كتاب فيما وقع للعرب من هذا القبيل .

م . ك

قلب الطفل

« تأليف ادمون دوآمينشي تعريب السيد عز الدين التنوخي طبع بالمطبعة »
« الحديثة بدمشق (١٣٤٩—١٩٣٠) ص ١٨٧ الجزء الاول »

مؤلف اصل هذا الكتاب من علماء التربية في ايطاليا ، جعله دروساً للأطفال يتلقون فيها حقائق تنير العقل وتكوّن الخلق وتبث العلم ، وقد ترجم الى كثير من اللغات الاوربية . وما نظنه الا كان في الاصل بلغة ساذجة يفهمها الطفل الذي كتبت له . اما الترجمة العربية فمع حسنها لاتكاد تخلو من العهدة ، لان المترجم وهو يعربها عن ترجمة افرنسية توخى ان يصور الاصل فما استطاع احياناً الا ان يأتي بشيء بعد من عويص اللغة عند الطلبة المبتدئين ، وان كان من المألوف عند جمهور المتأدبين ، فاذا أضيف الى هذا العويص كونه لم يفسر ولم يشكل ضاعت فائدة الكتاب على من يراد استنارتهم بقبس العلم ، وتلقينهم الفضائل العملية ، وانحصر النفع فيمن يتلون فيفهمون والقليل ماهم . وقديماً قالوا ان البلاغة ان يعطى كل موضوع الكلمات التي تليق به فلا يخاطب العالم خطاب الجاهل ولا الكبير كما يخاطب الصغير . م . ك

افريقية الغربية البريطانية

« تأليف السيد عمر رضا كحالة طبع بمطبعة الفيحاء في دمشق ص ١٣٢ »

هذا باحث مفكر من اهل النشأة الحديثة في دمشق ، رحل الى افريقية الغربية وأقام فيها مدة وكتب في تاريخها وحاضرها واهلها وحيوانها ونباتها وعاداتها وخيراتها الخ صفحات قليلة أظهر بها ما كان العربي في معزل عن معرفته واذا احتاج الى شيء منه فلا يقع عليه الا في كتب الافرنج ، وعسى ان ينظر الكاتب في لغة كتابه في الطبعة الثانية ويحذف بعض المكررات من افكاره وتعليقاته النافعة .

م . ك

كتاب قواعد الافعال السامية

« وصيغها لزمانية »

للاستاذ مارسل كوهن طبع في باريز سنة ١٩٢٤ في ٣١٧

Marcel Cohen - Le Systeme Verbal Simitique et l'Expression du temps.

وضع هذا الكتاب بالافرنسية وهو يتضمن ابحاثاً لغوية سامية خاصة بالافعال ودلالاتها الزمانية في مختلف اللغات السامية من قديمها وحديثهـا ولطالما عابوا عليها عدم الوضوح التام في بيان حدوث الفعل في الماضي والحاضر والاستقبال كما هو الحال في اللغات الهندية الاوربية . و بالرغم من صعوبة هذا البحث فقد عالجه المؤلف من جميع انحائه وتوسع فيه بصورة دلت على طول باعه واحاطتـه بجميع تفرعاته ، وقد استفاد المؤلف من الوثائق القديمة فبين جمود اللغات السامية الفصحى وعدم تطورها مستشهداً باللغة الآكادية التي لم يطرأ عليها التطور خلال ثلاث آلاف سنة ومثلهـا العربيـة لم تخط خطوة في هذا السبيل منذ تدوينها ، كما انه ذكر شواهد على تشابه اللغات السامية وقلة الفروق بين تراكيبها ، فالكنعانية القديمة مثلاً تشبه العربية من اوجه كثيرة . كما ان المؤلف بحث في تطور بعض اللهجات السامية العامية منذ القرن الثالث حتى القرن العاشر بعد الميلاد وتباعدها عن قواعد اللغة الفصحى ، وقد أورد المؤلف نصوصاً كثيرة أثبتها باحرف لاتينية تتطلب من المطالع احياناً جهوداً لقراءتهـا . ولهذا الكتاب قيمة علمية عظيمة ومكانة مؤلفه وشهرته لا تحتاجان الى تعريف .

جعفر الحسني